مملكة القطط

رواية

بقلم/
بيتر ماهر الصغيران

مراجعة وتدقيق/
أحمد عبد الموجود

مملكة القطط

A G للنشر والتوزيع
تليفون: 01009930002
E-mail:a.gforpublishing@Gmail.com

الجزء الأول

المملكة

القاهرة 2005م

غاصت الأقدام في الوحل، والوحل لا ينشأ من فراغ، فهو نتيجة طبيعية لامتزاج الطين بالماء، كل شيء يؤكد أن هناك شيء ما قد أرادوا إخفاءه، خراطيم الماء، العصي، الخوذات ورغم ذلك نجح البعض في التقاط بعض الصور التذكارية مع المعتصمين، قبل إغراقهم بالماء افترش السودانيون أمام مفوضية الأمم المتحدة السامية لشئون اللاجئين، عددهم بدأ بمجموعة صغيرة، ثم كحلقة بدأت في الاتساع رويداً رويداً، حتى صارت مشكلة تؤرق النظام الحاكم.

اختصرت ثلاثة أشهر على لا شيء، حصيلة القتلى والجرحى تجاوزت العشرين، بينما الجرحى تم ربطهم في أسرَّة المستشفيات بكلبشات حديدية.

تصاعدت خيوط الدخان بشكل متراقص، في صورة متناقضة مع حالة الحداد التي – من المفترض – أن تكون عليها، الدخان يوحي للطيور بأن هناك خراب ما قد حدث، الطيور الأليفة تهرب، أما الجارحة ففي مثل تلك الأوقات تبدأ في تجميع نفسها، وتنتظر بهدوء ما سوف يسفر عنه الموقف، ثم تنقَضُّ على مخلفات الدخان وتنبش الرماد، فتتغذى على بقاياه، لكن المنطقة المأهولة، هي التي منعت هذا السيناريو من الحدوث، ذلك السيناريو الذي يتكرر بالصحاري بعد المعارك، أفادت المنطقة المأهولة – أيضاً – الجثثَ حيث لا يوجد غربان أو طيور جارحة، وإن وجدت تكون بأعداد قليلة، لا تؤثر بشكل ملحوظ عليها، مما أدى لاحتفاظ الجثث بكامل أجزائها؛ الأعين التي هي جواهر المرء المعنوية، لم تنقر بمنقار طير جائع أو يقطعها كلب ضال.

جمعوا الجثث، أحصوا العدد مرات ومرات، عرفوا هوية البعض، والبعض المتبقي لا يزال مجهول الهوية يبحث عن أسرة، تقول إحدى الأسر: (نعم هو لنا، وإن لم تصدقوا إليكم الدم، فالدم لا يمكن أن يكون ماءً ،وإليكم الـ (DNA)، لكن تبقت الجثث مجهولة الأسر لأيام.

بكل تأكيد كان لدى المتوفين زعيم ما أو رئيس، قبل موتهم حمسهم وركز على فكرة النوازع الداخلية، أقنعهم بأن الموضوع يستحق الموت من أجله، لكن هل يا تُرى ظل الزعيم متواجداً حتى النهاية؟.. هل البحث سيسفر عن وجود أحد الرؤساء أو الزعماء الذين كانوا يحثون الناس على القتال حتى الموت وسط الجثث؟.. ربما!!

****

تابعت أنا وصديقي الهواء الخارج من آثار الفض، كما تابع بعض المواطنين مثلنا أصوات المعتصمين محشورة في كل جزيئات الهواء، تصم الآذان، وجاءت الأحاديث الصباحية عن الليلة السابقة، فالصحف من جانبها قالت: (فض اعتصام المهندسين، بعد ليلة عصيبة دامية كان لابد منها) ثم تحلل للخبر ذكر بصيغة السؤال والتعجب، هل يعقل أن "المهندسين" يتم بها كل ذلك ولماذا؟.. وأين الأجهزة الأمنية؟.. فقد كانوا يتحدثون عن حي "المهندسين"، وكأنه الحي المقدس، بينما في الإعلام المرئي لم يختلف الوضع كثيراً عن الضرورة الحتمية لفضه.

صديقي الذي برفقتي لم يندهش، ربما اعتاد، لكنه قال بعض الجمل المنطقية، تجعلك تستأنف الحياة من جديد، وكأن شيئاً لم يحدث.

السودانيون يحلمون مثلنا، في الحقيقة أفريقيا كلها تحلم، لكن ما الحل؟ إنهم حاربوا وما زالوا يحاربون!

****

تهيأت للذهاب للعمل، واليوم هو الموعد الأسبوعي، الذي هو شبه دائم منذ ثلاثة أشهر ، مع "عزة" و"سامي"؛ عزة قطة تخفي ذيلها الشيرازي بداخلها، لا أحد يراه حتى زوجها سامي نفسه، لا يعلم بوجوده، يحضران إلينا في الفندق، يؤدي سامي بعض جلسات العلاج الطبيعي، فهو المريض بالغضروف، ترافقه عزة وهي سودانية الأصل، تعرفت عليه بمصر، لكنهما لم يذكرا طريقة التعارف أبداً.

في تلك المرة كانت غاضبة على ما أصاب أهلها أثناء فض الاعتصام قالت:

– "لا نستحق ذلك" ثم توقفت عن الكلام، وظلت تردد كلمات مبهمة تشبه الطلاسم، ثم استأنفت حديثها:

– "بالأساس، أفريقيا على خريطة العالم، رغيف خبز مأكول الأطراف بين القارات المجاورة، رغيف مصاب بعفن الخبز، تآكل على فترات، داء العفن مستوطن به حتى التنوع الطبيعي، كما تقول النظرية القديمة: أن كل القارات كانت كتلة واحدة، ثم انفصلت على مراحل، حتى لو أنك نظرت لشكل خريطة العالم، ترى فيها شبهاً بلعبة تركيب وتجميع الأجزاء، كل جزء كان مُعشقاً بالجزء المشابه له، أفريقيا مُعشَّقة في الأمريكتين، ومعشّقة في الشمال مع أوربا، ومعشّقة بآسيا بالشرق، وبالجنوب الشرقي مع استراليا، وأخيراً القارة القطبية بالجنوب، حينما تم الفصل كُتِب عليها أن تكون مركز الأرض، وفي السنوات الأخيرة، كما قرأنا عن حدف البحر لجثث، عقدتُ العزم على رفض داء العفن، ورفض الخبز المتآكل، وشراء الرغيف الكامل، هم يودون إخلاء دولة بالكامل، دولة تستوعبهم، دولة بقوانين جديدة وأنظمة جديدة وأخلاقيات بشرية جديدة، يجتمعون مع النازحين من الحروب الأهلية، الأهم الأرض، ثم يكتشفون بها البترول والمعادن والماس والذهب والفضة والبلاتين، تقبل تلك الأرض زراعة القمح والقصب

والقطن والموالح، مليئة بالمراعي الخضراء، أرض منبسطة سهلة متسعة، لا تعرف الجبال أو الهضاب، ترمح بها الخيول دون عوائق، هل سمعت عن المدينة الفاضلة للفارابي؟.. أو الجمهورية لأفلاطون،؟!.. هي شيء من هذا القبيل، ولكن من يلبي تلك الأمنيات؟!.. لا أحد على الإطلاق"

ثم بكت، أظن أنها تذكرت أيام النيل الأزرق أو الأبيض هناك على ضفافه بالسودان، تحولت من شيرازية الطباع إلى سمكة نيلية بلطية، وهذا النوع من البشر لا يبرح مسكنه، وإن رحل يبقى مستقراً على مقربة منه، فالنيل الشمالي ممتد حتى الإسكندرية، انتقلت من السودان إلى الإسكندرية طمعاً في حياة أفضل، فحتى القطط تسعى دائماً لتحسين أوضاعها وظروفها، والانتقال من حال إلى حال.

قالت:

– "أشكرك على حسن الاستماع، ودخلت غرفتها".

لا يمكن أن يكون الحوار السابق عادياً، هي محاضرة، ما كل تلك المعلومات يا أستاذة عزةَ؟

تصلح لتولي منصب رئيس الجمهورية، أو حتى على الأقل نائبة بالبرلمان، وهي تدافع عن أهل بلدها، بكل هذا الحب وكل هذا الإصرار، انشقت حنجرتها نصفين من شدة الثقة ولم تهتز، ماذا لو ألقت تلك المحاضرة، التي فاتني تسجيلها – ولو ورقياً – على جمهور من المتابعين، آه لو أُلقيَت على مسرح؟! أتوقع أن تضج القاعة كلها بالتصفيق الحاد؛ لأنها لم تكن تتكلم فحسب، بل تعزف بصوتها على أوتار القلب، فتحزنك تارة وتقبل المأساة تارة أخرى، وتعيشها مجسدة متحركة أمامك، قالت كلماتها بدوافع الصبر على الاغتراب بمصر، بكل ما تعلمته في النشأة، حتى الشباب، وما مرت به في طفولتها التي لا أعلم كيف كانت

هي؟.. طفولة تعيسة أم سعيدة؟ لكن يبدو أن أصولها وجذورها قد نميا اليوم، وطرحت شجرة فأخرجت فروعاً وثماراً، فتشعبت الفروع: فرع تاريخي ذكر ما رأى وما سمع، وفرع جغرافي رسم الخريطة وفصلها، وفرع اقتصادي تجاري، وفرع فلسفي، وصف دقيق لمواصفات المستقبل الذي تريده أن يكون، سواء تحقق في القريب، أو ظل حلمَ يقظة غير مكتمل الملامح، باهت الألوان، ورغم ذلك قابع في العقل الباطن، يختفي ثم يظهر.

تبقى المحاضرة التي سردتها كابن بطوطة في رحلاته، وابن خلدون في وصفه لصفات وعادات الشعوب، أين الراديو؟.. أين التلفاز ليذيع ما قالت؟!

هل يتبخر كلامها في الهواء بكل تلك البساطة؟!

تعيش في كنف سامي، الزوج الذي يحاول تطبيعها بالطباع المصرية، يحاولان أن يعيشا معاً كأي أسرة عادية، تهتم بمشاكلها الخاصة، وقفا أمامي في أول مرة فكان يرمقها بنظرات النمر الغاضب كلما تحدثت معي، سامي يعمل بالهيئة العامة لسكك حديد مصر، عمله جعله يرى المسافرين عن قرب، يتأمل ويراقب، وفي أوقات السفر الطويلة، يبدأ بالتعارف على بعض المسافرين، يبدو أنه قد تعرف علي عزة بأحد القطارات، ولكنه مجرد ظن وليس يقيناً.

يتكلم بلهجة الإسكندرية، يقسم الجمل إلى أجزاء صغيرة، تسمع الموج في حديثه إذا غضب أو صاح في زوجته أو أولاده، فيتراصون إلى جوار أقرب حائط، حتى تمر تلك النوة الوقتية من الغضب، سامي رجل نحيف أسمر اللون حليق الوجه، صرح إلي مؤخراً في زيارة سابقة إليّ، أنه دائماً ما يشعر بأن أسداً داخلياً يتولى مسئولية أفعاله لكنه هو ليس بهذه الشراسة من الأساس، ثم تمنى أن يظل حماراً يحتمل، حماراً مروضاً ليس برياً أو وحشياً، حماراً كالذي يمشي في شوارع مصر، يعرف طريق منزله لوحده بعد مشوار أو مشوارين على الأكثر، مثل تلك

الشخصيات المتمثلة في سامي، عندما يموت يرث أولاده كل تلك الصراعات، ما بين طباع أسد وحمار طيب يحتمل كثيراً.

بينما عزة هي المثال البشري الحي، لعبارة (القطة التي تقفز بأولادها السبع حيطان)، تراعي الأولاد فتكافئ الذي أصاب منهم وتصبر على المخطئ، أحاديثي معها – و إن كانت قليلة – لكن دائماً ما كانت مثمرة، لم أشعر مطلقاً بأية غرابة في حديثها، وهي السودانية التي تعيش بمصر، تهتم بالشأن العام الداخلي والخارجي، أحاديثها عن السودان كانت قليلة، في كل زيارة إلينا تكتسب عادة مصرية جديدة، وتتقن اللكنة العربية المصرية أكثر.

أحببتهما كزوجين وكأسرة، تحاول أن تعيش في سلام وألفة، يُنشئان نوعاً من أنواع الحياة الأليفة التي تستأنس الملل اليومي.

بعد العودة من جلسات العلاج الطبيعي، يصطحب سامي الأسرة في جوالات ليلية، مرة إلى كورنيش النيل بالقاهرة، ومرة إلى حضور فيلم سينمائي جديد، ومرة إلى جولات حرة دون تحديد لوجهة معينة.

****

في يوم من الأيام، انهمكتُ في تسجيل الزبائن، دخلت (ليلى) وهي زبونة، تشدو بمواء متقطع، في موائها لحن جديد، مختلف عن الباقين، قطة ذات فراء، لو قُدِّر وأصبح فراءً جاهزاً للبيع، لصار له شأن عظيم بين الأنواع المختلفة عنه.

بدأت أحلامي عنها في الأيام الأولي من معرفتها، وفي حلم غريب ارتدت نظارة طبية، وقفت في وسط فصل دراسي، تشرح مبادئها بالتفصيل، الطالبات ينصتن لها بكل الحواس الممكنة. استيقظت في تلك الليلة، ثم غلبني النوم مرة أخرى، ليعاودني الحلم ذاته مع زيادة

بعض التفاصيل عن شكل الطلاب، حيث أنني حينما دققت النظر، وجدت بينهم طلاباً من الرجال، صارت الطالبات تحاولن التشبه بها في كل شيء، فلقد صارت القدوة والمثل، خرجتُ من المدرسة وابتعدتُ عنها مسافة تقرب من الكيلو متر، ثم جاء سائل يسأل:

– "أين تقع المدرسة"؟

وصفت له الطريق:

– "هي على بعد كيلو متر من هنا".

رحل السائل وانتهى الحلم بعبارة:

– "أشكرك كثيراً، كم أنت مخلص للمدرسة".

لم تأتِ الأحلام من فراغ، حتى الحلم الثاني أخذ من الأول فكرة المدرسة، تصطحبني بنفسها في أرجائها في جولة تفقدية، لم أكن أتوقع وجود المدرسة، كانت درباً من الخيال، وقلت إنه عبث، وصفت – وبكل دقة – كل ركن فيها، ولماذا هذا الركن هكذا؟.. تكرر الحلم مرتين.

هي بعد فترة صارت أستاذه تعليم، تفهم كل المبادئ، ربما يكون لها مبادئ تخصها وحدها، لم تبدأ في يوم واحد، بل بدأت تقريباً بعد أربع أو خمس سنوات من ولادتها، ورغم عدم تصديقي لكل ما تسرد، لكنها تمتلك من أدلة العين والفم ما يدعوك لتصديقها، ويلجأ عقلك للحل الوحيد الذي أمامك فيجبرك على تصديقها، يتوسل عقلك لقلبك: أرجوك صدقها، لقد وثقت فيك دون أن تعرفك من ذي قبل، أنت الشخص الأول، أو لست أنا الأول لا يهم.

جلست أستمع منها المبادئ واحداً تلو الآخر، تركتها تحكي بتمهل، مكان سرد المبادئ (فندق) صغير، يطلقون عليه فندق ولا أعلم من أطلق عليه لقب فندق، ما يتناسب

معه تمام التناسب، كلمة (لوكاندة)، أو التسمية القديمة (بنسيون)، أي مكان لا يزيد عن عشرة غرف أو أكثر قليلاً للتسكين، ليس من المصريين فحسب، بل من كل حدب وصوب، المصريون هم المكون الأساسي له، فهم جزء صغير من كون كامل، يحتوي على أقمار وشموس ومجرات لا يعلم مدها سوى الله.

فندقنا كان مسار سخرية حتى من بعض رواده، تكون أثاثه من بعض الأرائك والمقاعد، أما الغرف فقد احتوت على أسرة صغيرة، سجادتان تغطيان الأرضية، وأخيراً انضمت أجهزة كهربائية مثل التلفاز والمراوح النقالة.

يتردد علينا مهن مختلفة، ومن ضمن هؤلاء مطرب لبناني، يطلق على نفسه (فريد الصغير)، كان درجة ثالثة كتصنيف الفندق، ما علاقة اللقب بالصغير؟.. هل للقب علاقة بقِصَر قامته أم لا؟!.. يحمل عوداً وحقيبة سفر، ودون أن يطلب أحد سماعه شرع في الغناء، له طقوس غريبة وقت الغناء، يتطلب الأمر ارتداء (باروكة شعر) متهالكة، يخفي بها صلع رأسه، الذي ترك له بقايا شعر مؤخرة الرأس، يغني أغنية لفريد ثم لفيروز ويختم بالعندليب الأسمر، كان يمتلك بعض أشياء، كصورة تجمع بينه وبين فريد الأطرش، يقول أن السبب في لقبه هو فريد الأطرش، بل هو من أطلق عليه لقب فريد الصغير، يقول: (تبنى فريد موهبتي)، على الرغم من التزييف الواضح للصورة، بدا عليّ تصديقه، لديه ثقة كبيرة في ذاته، تفوق شهرة نجم غنائي لامع، وعن سؤالي إليه:

– "لماذا لم نسمع به من قبل هنا بمصر"؟!، ينظر إلى باستهزاء قائلاً:

– "كم عمرك أنت؟ أنا فريد الصغير، لحنت لصباح الشحرورة، ووديع الصافي، وأنا صغير كانت تغلق شوارع بيروت وأنا أغني، حفلات تباع تذاكرها بالكامل، منذ اليوم الأول

للطرح على الجمهور، هل تعلم مدى حقد الرحبانية على صوتي؟، المنافسة شرسة بلبنان، وخصوصاً بالجنوب، لدينا أصوات جبلية".

ثم تلفظ ببعض الألفاظ الخادشة للحياء، أقلها كلمة كلب وابن كلب، ثم قام ودخل غرفته، كبلبل جُرح في كرامته، ليأتي إلى من غرفته، مقدمة أغنية قارئة الفنجان، كان صوته الشجي ملفتاً للسمع، أحببت هذا الرجل وجدته طفلاً، يستعرض ألعابه علينا، يمسك العود ويبدأ في العرض والاستعراض.

يتحدث عن بناته وعن أحفاده، وعن أحلامه المستقبلية، حتى في سنه الكبير هذا، تشعر وكأن أمامك طاقة أمل، مفتوحة على مصراعيها للجميع، عن كيف تدار لبنان وعن الطائفية ، تمنى لو أن الجميع يغني، كان يرى أن الغناء هو الحل الأمثل لوصول المحبة لكل البشر، على اختلاف لونهم وجنسهم وما يعتقدون، تجتمع البلابل والعصافير فتشرب من صوته، حتى أن بعض الزبائن اعتقدت أن غنائه، عرض يومي لمطرب مغمور من لبنان.

كل من يجلس معه، يكتشف الحس الفكاهي، الذي يحمل مرارة الكوميديا السوداء، بكل ما تعني الكلمة، فكاهة ممزوجة بالمرارة، ينهي حديثه وحكاياته، القلوب الملتهبة البائسة يقول في ختام معظم حواراته: (علينا بالصبر).

يعتبر أكثر الأعوام التي حقق فيها ربحاً من لعب القمار هو عام **2006**، حيث العدوان الإسرائيلي على الضاحية الجنوبية لبيروت، فبالنسبة لأهل الجنوب كانت تجارة رائجة، لم يتركوا الفرصة لتمر مرور الكرام؛ استغلوا كل لحظة من الحرب، قام بتأجير جزء من منزله، لبعض سكان الضاحية الجنوبية، الذين فروا من العدوان، وقال أن الأموال كانت أقل شيء حصل شخص مثله عليه، فهناك من كان أكثر طمعاً في أشياء تُعتبر أموال، ولكنها أموال جسدية، ثم يستكمل:

– "في الحرب، لابد وأن تلتمس العذر لكل من وقع تحت وطأتها، الأمور كلها في كفة واحدة".

خسر معظم أمواله في صالات القمار التي تنقل بينها، ومن أجل استجلاب الحظ من جديد، أتى للقاهرة العامرة، ربما يواتيه الحظ هنا، فريد الصغير حكاية واحدة، من حكايات الطبقة الوسطى من رجال ونساء فندقنا المتواضع، يستخدمون بعض الكذب كرئة جديدة، يتنفسون منها هواءً جديداً، هواءً أهم من الأكسجين، هواء يصنع من حياة كل منهم حياة حقيقية.

يذكروني بجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق بعد الانفصال، حيث بدأت كل جمهورية فيهم بتنمية نفسها بنفسها، وإنشاء علاقات دولية بمفردها، هم – أيضاً – منفصلون عن فكرة الحدود سواء الفكرية أو النفسية، كل شيء يعلن استقلاله، لا تهم الايدولوجيات السابقة، فكل ذلك أمور وقتية تتغير من آن لآخر، تجتمع كل الحكايات في أجوالة هوائية، نفرغها من الآذان بعد السرد.

كوَّن كل واحد منهم في محيطه الشخصي مملكة صغيرة، صحيح أنها بسيطة التفاصيل، ليست ذات تاريخ طويل، فتاريخها يبدأ – فقط – مع الميلاد، ربما يمتد إلى ما بعد وفاة مؤسسها، فمن كان رئيساً للوزراء يتولى الملك فيها، هكذا بلا انتخابات أو حتى استفتاء بسيط، نطاق كل مملكة ضيق الحدود، تكون علاقات كأي مملكة مستقلة بذاتها مع ممالك أخرى، لها من المؤسسات الإعلامية التي تتمثل في من هم أقرب للملك، يعلنون عن حياته وتصريحاته الأخيرة، ثمة مدارس داخلها وطرق تدريس تختلف من مملكة لأخرى، على حسب اللغة والنوع والجنس، معلمون وتلاميذ، كل تلميذ يعتبر نفسه وحدة بناء المملكة، قد يكون لها في يوم ما عَلَم ونشيد ملكي مستقل، الأهم أن يراعي كل واحد منهم، أنه مملكة في ذاته.

عمارة واحدة، وطابق واحد منها به الفندق، ومن يتردد عليه يجعله سفارته، الشيء الذي ينقصه هو أن يضع عليه علم بلاده، بما يحمل من رمز.

هل كان يظن من بنى العمارة عام 1950، وتكلفت أربعين ألف جنيه حينئذ، أن تتحول إلى مبنى أمم متحدة مصغر، مقره وسط البلد؟!

نشرب المشروبات الساخنة والمثلجة، ونمضي في حكاية أخرى، نهر الهند المقدس (يانج)، لم يسلم من حكاوي زبون هندي، تحدث عن النهر الذي ينبع منه أولاً، أبادله الحديث عن نهر النيل والعروس التي كانت تُلقى به كل عام، عن ذكرى حالية تسمى: (عيد وفاء النيل)، لا يتعجب من ذلك أبداً، فالنهر لديهم حتى الآن مقدس، يستحمون به، يعتقدون أنه يغسلهم من كل شر، فيعيدهم أحياء أوفياء لإنسانيتهم.

شرح لي مهرجان الألوان، وكيف يدهنون أنفسهم بالألوان، الأصفر والأحمر والبرتقالي، ثم يرقصون ويأكلون في جماعات من الرجال والنساء والأطفال، حتى أنه قال: أن جميع الرقصات التي نراها في أفلامهم هي تراث هندي مع بعض التعديلات التي تفرضها الحداثة، حاولت تعلم بعض الكلمات الهندية، ولكني فشلت، رغم تقارب كلماتهم من العربية، تشعر أن الهندية هي العربية ولكن بطريقة مقلوبة، تحتاج من يعدلها لكي نفهمها.

من أول وهلة عرفت أنه هندي، لهم علامات مميزة عن أي شعب آخر، لم نكن هنا نستطيع أن نفرق بين الأجناس أو الألوان أو الأديان، الكل هنا سواء؛ فالمبدأ أن الزبون دائماً على حق، فلا يمكن أن يشعر زنجي أنه زنجي، إلا في حالة زبون لم يدفع الحساب مثلاً، كنيجيريين أتيا إلى مصر، يعرضان مهاراتهما الكروية على أندية الأهلي والزمالك والإسماعيلي، لكنهما لم ينجحا الاختبارات وفشلا، والسؤال: هل يعودان من حيث أتيا فاشلَين دون شراء أو بيع؟!.. بحثاً عن الأضواء الكاشفة في القاهرة، الأضواء الكاشفة هنا، ليست مجرد أضواء في

ملعب لكرة القدم، بل أضواء تعوض عن ضوء لم يعرفا إليه سبيل، وضعا في مخيلتهما من سبقهما إلى عالم الاحتراف، لعل وعسى....

أحدهما يلعب في مركز خط الوسط، والآخر حارس مرمى، يتكلمان اللغة الإنجليزية بلكنة أفريقية صعبة الفهم، رحلا دون دفع أي حساب غير الليلة الأولى، تركا حقيبة سفر بها ترنج رياضي مستورد، أخذه سرحان عامل النظافة من جملة ما يأخذه من مخلفات الزبائن.

رغم كل الزبائن المتكلمين المتحدثين، إلا أن نسبتهم لا تتجاوز نسبة الخمسة بالمائة من جملة الزبائن، معظم الزبائن كانوا مُغلَّفين بالصمت، لدرجة أنهم لا يتركوا أي أثر لهم، إلا اسم داخل الدفتر، وتوقيع يختلف من شخص لآخر، صحيح العيون لم تترك الفرصة للصمت، حاولت التعبير بدلاً من اللسان، لكنها ذابت في الصمت أكثر، قدمت لغة العيون المستعارة من اللسان، تتأمل وتسجل ما شاهدت بنفسها، لكن تبقى الأسرار حبيسة الجفون والعيون، ولا تخرج عن نطاقهما.

البعض منهم يترك الصمت في الغرف لمدة أيام، بل وشهور حتى يعيد الزيارة، رغم تغير الزبائن وتبادلهم باستمرار، إلا أن هناك منهم من يبقى من شدة صمته، علامة يحتفظ بها مكانه بالفندق، يأتي فيتكرر سيناريو الصمت السابق، مع زيادة بعض التعبيرات القليلة من العين والفم، مثل: لقد عدنا أو ما الأخبار؟ ثم يعود الصمت يغلف الأفق الميحط بالزبون، ولا يخرج منه إلا بالرحيل، الوادع لم يكن به أي حرارة، الوداع مع هؤلاء الصامتين وداع أشبه بقلع جذور شجرة كافور من مكانها، زبون غادر و زبون آخر قد جاء، عكس المتكلمين الآخرين تماماً ، نودعهم بشيء من الود والمحبة، صارت العشرة – حتى لو لأيام قلائل أو يوم وأحياناً بضع ساعات – تكفي لتحقيق الألفة والود.

****

ليلى وهى الزبونة الأكثر إثارة للجدل في الفترة الأخيرة، تلقي في كل حكاية ترويها، بطلة من حكايات ألف ليلة وليلة، تتقن دور البطولة، و تحيك حولها خيوط العنكبوت ببراعة، كنت أفهم دائماً أن الجسد جسدي على سبيل المثال ليس مكاناً للتريض، جسد يأكل ويشرب ويخرج ذلك، ولكن على يديها تعرف أنك تستطيع دمج جسدين في جسد واحد، تستطيع من خلال لمسة واحدة أن تتسرب روحك الصغيرة إلى روحها الواسعة الكبيرة بكل ما فيها من قدرات خاصة لاحتوائك بكل ما عليها من لحم، لا تدرك المعنى الحرفي لكلمة لحم، اللحم الذي يكسو العظام، فما الجلد إلا ستار يغلف الروح ويغطيها، لا تحتاج سوى من ينقب عنها، ليستخرج تلك الروح ويعيش معها، هكذا كل ليلة تلمسني لتسري روحها فيّ لتبدأ الروح في التزاوج والاختلاط، أزعم أنه يستمر ربما لساعات أخرى بعد الرحيل.

المبدأ الأول، وحسب كلامها تحكي عن ماضٍ غريب، ماضٍ لأسرة تعيش أجواء غريبة، تخصها هي فقط، لديها من الطقوس ما يدل على بعض الاختلاف عن الآخرين، لا تقول الحرية، ولا تقول أجواء متعة شاذة، بل أجواء تطبق في كل الفصول شتاء صيف ربيع خريف، بينما الخريف لديهم وقتي جداً، لا يحب الاستمرار أبداً.

طقوس منفتحة على عوالم آخرين، دون خجل وكيف الخجل؟ ولماذا ؟ فالخجل حجر عثرة أمام متعتهم، الأسرة مستمتعة جداً، رغم حديثي معها عن الروح، إلا أني أشك في قبولها مبدأ الروح، تتعثر روحها في المسالك والدروب الكثيرة التي تخوضها بشكل يومي، فتتجنب الحديث عنها، دائماً ما كانت تغني أهازيجاً لم أسمع بها قط، أهازيج شمال أفريقيا وبلهجة محلية قلما أفهمها، وكلما أفهم بمفردي كلمة واحدة من عشرة كلمات، افرح، وبعد الانتهاء تبدأ في ترجمة معاني الكلمات كلمة كلمة، أكثرها معانٍ حزينة، أو تحمل نوع من ذكريات مؤلمة، تراث شعب حَزِن وتألّم وفرح.

تستخدم تلك الأهازيج في أوقات شعورها بالغربة هنا، محاولة استرجاع وطنها البعيد، رغم أن فكرة الوطن ليست بمعنى الوفاء الذي يفهمه أي شخص، بل الوفاء للذكريات، القاسي منها والبغيض، ذكريات هي الأكثر وجوداً في عقلها.

رغم عدم فهمي لتلك الأهازيج، فإن هذا لم يمنع مطلقاً من وصولها لي، بل وأحياناً أطلب منها غنائها، صوتها يخلو من أي جمال، لكنها تعوض ذلك بتحميل الصوت الإحساس، حنجرتها ترتجف كما لو أنها تخاف من شيء ما، ثم تنتفض في وسط الغناء، وأخيراً وقرب النهاية تشرع في البكاء كثوري قال كل أناشيد الحرية بأعلى صوت ممكن ولم يسمعه أحد، هنا ترى روحها التي تحاول إخفاءها عن الجميع.

ثلاث سنوات مضت منذ قدومها إلى مصر، جعلها تتعلم لهجتنا العامية، تتعثر في كلمات ويخونها التعبير في كلمات أخري، لكنها تحاول بقدر الإمكان ألا تتوقف عن الحديث باللهجة المصرية، أما أنا فقد التقطت منها قليلاً من لهجتها، وفي يوم من الأيام وجدتني أردد وعن دون قصد أهازيجاً وبعدها خرجت كل زفرات الألم.

****

منذ أن اشتهرت قصة مجنون ليلي بين العرب، وارتبط الاسم بمعنى الجنون وطقوسه، صنع من قيس أسطورة الغير ممكن، دار يتغزل ويسترسل ثم ماذا بعد؟.. فاضت روحه ولم يصل لشيء، حتى ليلى نفسها ماتت.

– "قيس ابن عمي عندنا، يا مرحباً يا مرحباً".

في العصر الحديث، وضع المبادئ لم يتطلب منها كثيراً من التكلف، كانت تخرج منها بكل تلقائية، دون ترتيب مسبق.

وعن قيس والحديث القمري الهامس في جوف الليل جاء السؤال:

– "لماذا ليلى"؟ فقالت بضحكة مكتومة:

– "لقد وُلدتُ ليلاً يا صديقي قيس"، ثم ضحكت

من يعرفها يعرف أنها تضحك في كل الأوقات، وخصوصاً وقت الخمر، ليس فقط من تأثير الخمر فحسب، بل تتفق تلك الروح الجريئة، مع الخمر في التعبير والإفصاح، تضحك ثم تضحك، ليعود السؤال دون إجابة؟

تدور حولي في صالة الفندق كأني أنا الأرض وهي مجرد قمر تابع، أحب والدي (ليلى مراد) وأغانيها، ثم تتدن بإحدى أغنياتها: (أنا قلبي دليلي قالي هتحبي)، لتجذبني معها للرقص، والزج بي في نفسها العميقة، فنظل نرقص...

– "يا قيس ابن عمي"، أنا أقول في ابتسامة مغلفة بقليل من الرياء:

– "ليلى...." بطريقة عبد الوهاب في الأوبريت الشهير.

هكذا حكت لي قصة جديدة بين الواقع والخيال، بين المنطق واللامعقول، الصراحة لا أستطيع أن أقوم بالتصديق الكامل لما تسرده على مسامعي، من الممكن أن أقول أن نسبة ثمانين بالمائة أصدقه، وتلك النسبة تدخل فيها حسابات القلب على العقل.

نمت فيّ شخصيتها قبل أن أراها، من أحاديث العاملين الأقدم مني، حيث أني أحدث المنضمين إلى الفندق، يذكرها مثلاً (عم سرحان) عامل النظافة، فيقول:

– "ليلى بطة.. آه منها"، ويبتسم ابتسامة بأسنانه الفحمية البنية:

– "مدام ليلى".

يذكرها دائما بعبارة مدام، يلوي شفتيه عند ذكر كلمة مدام، يقلد بها زبوناً فرنسياً أقام ليلة وغادر، كان ينادي عاملة النظافة فوزية يا مدام، بما تحمل للسامع إليها لأول مرة السخرية في مد الحروف ولوي الشفاة.

أقدم العاملين بالفندق (مجدي باشا السلكاوي)، كما يحلو له أن يلقب نفسه بلقب باشا، العامل السائق المطرب الشعبي، يعمل سائق لدى صاحب الفندق، في أوقات العمل الرسمية وغير الرسمية.

لا يفهم السلكاوي إلا تلك الرغبة، ولا يقدر إلا الشهوة التي تتحرك فيه باستمرار، أجد له وصفاً مناسباً: نصف حيوان ونصف إنسان، هيئته العامة بوهيمي، مربع الوجه، دائري البطن، عدو الاستحمام، فني المزاج، أراها بوهمية بعينها المتجسدة عليه، ولا يعرف هو أنه بوهيمي.

هو مدير الفندق أولاً، إلى جانب موهبته الفنية، التي تغطي على الإدارة، يخرج قبل الجميع فيقدم أعضاء الفرقة وأصدقائه:

– "إليكم المطرب الشعبي اللذيذ، إليكم الراقصة الموقرة، بعد مسارح الشرق والغرب، تتواضع وتتنازل وترقص هنا بالفرح، تحية كبيرة....."

صارت ليلي محور من محاور اهتماماته مع الفندق والطرب الشعبي والفرقة، واحدة من كل الأشياء، مشكلته أنه من هواة الشيء المجاني أو الرخيص، حيث أنه يعرف احتياجات ليلى المادية قبل الجسدية و لكنه دائما ما يحسبها في تلك الأمور، لتكتمل المتعة لديه.

يعيش مبدأ رغبة أمام رغبة، مزاج أمام مزاج، رجل أمام امرأة، حديثه عنها وذكريات تواجدها بالفندق كانت تتسم بالغل الشديد، من الممكن أن تعيش في الفندق شهراً أو شهرين

وكل ذلك على حساب الزبون، المغفلون كثيرون، و هي تلعب على التغفل، الحمد لله أنا لست واحداً منهم.

ملامح وجهه لحظة السرد، لا تنم عن شخص يكرها، بل تنم عن واحد يقول: متى سأكون واحداً منهم؛ ليؤكد قدراته المتعددة، ماذا تظن عن حاجاتها؟.. تريد شقة أو حتى غرفة واحدة بسرير ودورة مياه؟! كل ذلك متوفر، لكن غوايتها مثل الجنية، تستنزفك، ترى حبل المشنقة وتسير إليه، ولا تقدر أن تنزع نفسك عنه ولا تنتظر رحمه إلا من الله، كنت أتمنى أن تكون عاملة بأجر في بيت من البيوت، وعندها كنت وفرت كل عناء الصبر، وبعدها ينتهي الموضوع، الرفقة لها ترتيبات أخرى، وشروط لا يقبلها أي فرد، ثم بدأ يغني أغنية عن الليل: (بعد ما عدى الليل وفات.. بعد دموع وحاجات وآهات).

طالما تدفع أجرة الغرفة بالكامل وبشكل منتظم، فأين المشكلة؟ صحيح أنها تتعثر أوقات وتتقاعس عن دفعها، ولكن سرعان ما أن تتصرف، وتسدد المبلغ بالكامل، وتدفع جزء تحت الحساب، على حسب رأى وتفكير صاحب الفندق والعمارة: (لا مشكلة في وجودها ما دامت تدفع، بل الاحترام سيد الموقف).

كم رأى ورأى عنها؟!.. أي أحد أزرع المحيط، بحر صغير يتسابقون في إبحاره، أرض إفريقية، يريدها الانجليز والفرنسيون والأسبان والبرتغاليون، ثبات وتمسك البربر بأرضهم وعاداتهم، ظهير صحراوي لأرض خضراء بمفردها دون فلاحة، شمس تشرق يوماً وتمتنع يوماً عن الإشراق، كل منهم تحول فيلسوفاً، يحلل ويستنتج ويعلل، بل يضع الحجة إلى جوار الحجة، والسبب أمام السبب، وعندما لا يصل إلى نتيجة حتمية، يعيد التفكير ويتأمل مرة أخرى، كونها امرأة تعني أننا خشنون وهى ناعمة، وعلى هذا الأساس كان التعامل.

لا أنسى ذلك (الكريم) الذي تضعه أمامي، هو كريم للبشرة بالجيليسرين، وكريم آخر للقدم، لتزداد تلك النعومة، لمست أطرفها مرات، شعرت بمدى خشونة يدي، و مدى حرارة جلدها الرطب، وكان الزيت يختلط على جلدها وأحترق أنا.

حينما رأيتها لأول مرة عرفتها على الفور، ليلى من وصفوهم لها، ودقة وصف سرحان بالتحديد، فهي الزبونة غير العادية في المكان العادي.

ظلت تسأل عن أخبار فلان وفلان، اطمأنت على جميع العاملين، لم تنس أحداً قط، بدأ التعارف بي، بما أني أحدث المنضمين للمكان.

دخولي غرفتها كانت تسبقه نوبات تحذيرية شديدة، صراع عقلاني رهيب، تصورت أن غرفتها هي غرفة الإعدام، احذر أن يراك أحد العاملين أو أحد الزبائن، بعد فترة لم أعد أخش التحذيرات، غرفتها وسريرها تسللوا إليّ، تزداد جرعة القرب إليها، حتى أصبحت أجلس على حافة السرير قرب قدميها، ناسياً كل الزبائن ما عداها، صالة الفندق المكان السردي الأكثر جلوساً به، بينما غرفتها تعتبر المكان المؤقت حيث نبتعد ونتوارى عن كل النفوس المزعجة، يبدأ السرد الليلي اليومي عن حياتها، ما قبل العذرية وما بعدها، لتعود هواءً نقياً خالي من النكوتين.

صحيح أنها تسرح في جولات مسائية ثم تعود، هناك مرات لا تجد أي نفع من الخروج، فينشأ حينها فراغ وملل وضيق، فيصير الحديث بديلاً.

الحديث أتى على مراحل، في البداية عن ما نحب وما نكره في الحياة بشكل عام، عن ما نسمع من أغان وما لا نسمع، عن أنواع الطعام لدينا ولديهم، ثم في مرحلة وسطى من المعرفة بعد مرور شهر تقريباً، أخذ الحديث مساراً جديداً فتحدثنا عن حياتنا الخاصة، وعندئذ بدأ الحديث يأخذ شكلاً آخر من حسن الإنصات مني، اكتشفت هي أنها أمام آذان تصغي

وعين تحسها، وفي المرحلة النهائية من التعارف، دخلت الحوارات عن الطفولة والمراهقة والشباب، ولا أعلم بالتحديد متى أفصحت عن شبكة علاقاتها المتشعبة، قد يقطع حواراتنا زبون أتى أو زبون غادر، أو سائل يسأل عن شيء ما، ثم نستجمع أنفسنا من جديد ونواصل حديثنا.

دخلت إليها في أحد الأيام فجدتها في قمة السعادة؛ لقد فاز فريقها الذي تشجعه في بلدها، ليفتح لنا ذلك باباً من الحديث عن السياسة وعن معالم بلدها السياحية، تحدثنا عن مدن وشوارع بعينها، وعن الأخضر لديهم وساحل البحر، وجدت لديها ثقافة لا بأس بها، تناولنا الحديث عن تاريخ البربر وشمال أفريقيا، لا أستطيع أن أطلق عليها لقب مثقفة، ولكنها تمتلك معلومات جيدة، ليست القضية في نقص أو اكتمال المعلومات، القضية هي شعورها بقومية غريبة وحنين جارف لبلدها، لكن هناك أشياء كثيرة تعطل استمرار هذا الحنين؛ فبعدها بأيام قليلة لا أجدها تتحدث إلا عن مصر وجمال مصر، يغلبها النعاس قبل الرابعة أو الخامسة صباحاً، فتنتابني مشاعر الوحدة.

يأتي عليها وقت يصيبها الندم على ما حكت، وتنقطع أياماً عن الحديث، ثم تعود كمطر وأنا كأرضٍ تستعد لاستقباله.

المستقبل لديها لا يوجد فيه سوى خيوط رمادية، ومربعات سوداء وأخرى بيضاء، لا تتفاعل مع أي كلمة من كلمات المستقبل، ككلمة الغد أو الأسبوع المقبل أو حتى الشهر القادم، تعيش أصغر وحدة من وحدات قياس الزمن.

تستيقظ وتشرب قهوتها لتجلس أمام المرآة، تبدأ معاناة أدوات التجميل، و تفاضل بين لون وآخر، بين أزرق وأحمر وكحل أسود، يا لها من حيرة كبرى تمثل مشكلة يومية، تختبر أمامي أنواعاً جديدة من الألوان ومن الشعر المستعار بأطوار مختلفة، شعرها مسرح عمليات

تحضيرية كثيرة، وبشكل شبه يومي تستخدم مجفف الشعر، تضع صبغات بلون فستان السهرة، طلاء الشفاة، (ماسكارة) العين، طلاء أظافرها، تجرب الأطقم التي تحملها في حقيبة السفر التي اعتبرها أنا نصف دولاب متحرك بما تحمل من محتويات: ملابس خارجية وداخلية بكل الألوان، أدوات تجميل يحويها صندوق فضي، أحذية متنوعة الأشكال والأحجام، كعوب عالية وأخرى منخفضة، ساعدها في إظهار كل ذلك من أدوات تكوين جسدي محكم التفاصيل، يحتوى على متوسطات الأحجام في كل مناطق جسدها، خمرية البشرة، لا جديد في تفاصيل الوجه عن باقية نساء جنوب المتوسط.

مع مرور الأيام وجدت يدي تتسلل إلى بشرتها، وأضع أصابعي الخمس على خدها، اقتربت مني بجسدها، بدأ شيء من الاحتكاك الخفيف بين تلك المناطق الحسية وأناملي، لفحتني حرارة جلدها العاري.

في الشتاء تلهو مع لسعات البرد وعند انخفاض درجة الحرارة إلى عشر درجات مئوية بالمساء تبدأ الشكوى من ارتفاع درجة الحرارة:

– "الطقس حار لديكم هنا".

– "حار"!

– "أين مكيف الهواء"؟

كمعظم الزبائن الأجانب، تفضل أن تقضي الصيف في بلدها؛ فالزبون دائما يفاضل بين الأنسب إليه في كل شيء، يفاضل ويقارن بيننا وبين الفنادق المجاورة الذي أضيف لها حديثاً، التكييف والثلاجة الصغيرة داخل الغرف، غاز الفيريون هو الحل، يغير المناخ صيفاً، ليجعل الغرفة أوربية الأجواء، الميزة أنك وأنت خارج من الغرف إلى الصالة، لا تحتاج إلى فيزا أو

تأشيرة دخول، حيث إن الصالة في مصر والغرفة في مصر أيضاً، يوجد زبائن تطلبه بالطلب المباشر:

– "هل لديكم تكييف بالغرفة"؟

وعندما تكون الإجابة: "لا"، ينزعجون ويرحلون ويلعنون الصيف أولاً ثم صاحب الفندق.

القنوات الفضائية تدخل من ضمن عوامل الترجيح، وعادة ما يكون السؤال: (هل القنوات محلية فقط أو عربية فقط)؟، فالأمر لا يسلم من بعض القنوات الأوربية التي تسخن الجو، فجميع الأفلام العربية صارت مستهلكة، لا يهم أن تكون تلك القنوات فرنسية أو إيطالية أو حتى روسية، مترجمة أو لا، فهي قنوات تهتم بلغة عالمية واحدة، تشترك فيها الحواس على مستوى العالم، فمشاهدة القطط البشرية البيضاء، بكل صفاتها وعيونها الزرقاء أو الخضراء أو الرمادية، عامل جذب هام تتنافس فيه فنادق ما تحت التصنيف وفنادق الدرجة الثالثة والفنادق ذات النجمة الواحدة والنجمتين.

أطباق الاستقبال المنتشرة على أسطح العمارات، يقف إلى جوارها أعمدة معدنية تحمل إعلانات عن أفلام أو مسلسلات أو مستحضرات تجميل، وغيرها من السلع الاستهلاكية، تتغير الصورة كل شهر، ومع كل صورة ألوان أكثر جاذبية من السابقة، تطورت عبر الزمن من صور مرسومة لصور فوتوغرافيا، غالباً ما تظهر في تلك الصور ابتسامة، أو ضحكة بيضاء لفتاة، وقبل أن تبهت ويكسوها اللون الأصفر – بفعل الشمس – تتغير الابتسامة إلى أخرى أكثر نصاعةً من السابقة تجبر المارين في الشارع إلى رفع رؤوسهم إليها، متأملين ومعلقين أحياناً عن جمال البسمة، و خصوصاً في الصباح، يراها القادمون إلى العمارة ومن ثم إلى الفندق، وتلك ميزة أخرى من المزايا التي أنعمت علينا بها وكالة الإعلان.

الجزء الثاني

المبادئ

المبدأ الأول

"لا أعرف"

المدرسة لدي ليلى بدأت في الصغر، كما قالت الحكمة: (التعليم في الصغر كالنقش على الحجر)، حيث رحلة على الساحل، والنورس الأبيض يحلق، وهي كطفلة لا تفهم معنى تحليق النورس الأبيض ، فالنورس يحلق بحثاً عن أسماك، عن صيد يسد به جوعه.

الصياد لم يكن من الطيور فحسب، بل الصياد رجل صديق للأخت الكبرى (سعدونة)، أحبت الأخت لعب دور السمكة المطهية المشوية المُعَدة للالتهام، في تدريب غير مقصود منها بدأت تلقنها معالم المبدأ الأول

– "يا أمورة.. يا شطورة.. يا حلوتي: إذا سألوكِ عمن كان معي، بماذا تجبين؟.. تقولين: لا أعرف، وإذا حاولوا إغرائك بالشيكولاتة قولي: لا أعرف".

أخرجت باكو الشيكولاتة من جيبها وأعطتها إياه، هكذا كانت البداية مع ليلى وتلك الوصايا، في يوم صيفي كهذا، مع طفلة صغيرة، تنزع العيون عنهما، حتى تبدو الأمور طبيعية أمام الناس، رجل وامرأة وطفلة صغيرة يمرحون بشكل طبيعي، لا يوجد أدنى مشكلة، وعلى شاطئ البحر المتوسط في الشمال الإفريقي، شاطئ أنضج من بلادنا هنا في مصر، رماله ناعمة، تشبه مارينا هنا في الشمال.

ما أجمل الاستمتاع بالمشاعر الحسية، ولمس كل المناطق، وما أجمل القبل والأحضان، والمياه تغمر الأجساد بالأمواج.

الرمل هو الشيء الوحيد الذي ينفع الأطفال على الشاطئ، تصب دلو الماء ودلو الرمل وتبني به شكلاً لا تدرى بالطبع ما هو ولكنه شكل، يأتي الموج ليغمره فيهدم، لتبدأ مرة أخرى بإعادة نفس المحاولة، ليسرع الموج في هدمه في المهد.

ظلت تحكي بلا توقف، تدرس في بلدها تصفيف الشعر، ولها صورة تعتز بها جداً، عبارة عن حفلة تسليم جوائز للمتفوقين بالتصفيف:

– "لم أكمل، ولكني أكملت مع (عادل) ستة عشر سنة، وأنا بين يديه اليسرى واليمنى، حتى مللنا وكان الحل الوحيد هو البحث عن بديل".

بعد كل هذا الاسترسال في الحديث، وجدتني مميز عن جميع من عرفها قبلي، أصبحت خبيراً بها:

– "أنت يا صاحب الوردية الليلة: أنت يا أيها السامر الجيد، لست كما مجدي السلكاوي – عاشق النوم – ،أنت الوحيد الذي لا تنام أثناء الوردية الليلية".

استشعرت بعض ملامح الطفلة عليها، سردت حكاية طفولتها السابقة ولا تعلم، هل بنوع من الندم أو القهر؟!

كانت الأخت هي أول معلمة، تلك التي فيما بعد تزوجت وأنجبت (سندسية)، بل أصبحت سيدة مجتمع، لكن بعدما نمى لدى ليلى الثعبان في جوانحها في الصغر، لدغتها عقارب الرغبة والنشوة، التفت حول رقبتها، كان أمامها حل وحيد، إما أن تنشئ مدرسة، أو تبحث عن معلمة ملهمة، تستكمل معها ما بدأت من مبادئ، ظل البحث والتنقيب حتى وجدت معلماً، اختلاف النوع لم يكن في الحسبان، طالما أنه قادر على تلبية رغبة التعلم، فالأهم هو استكمال الطريق، في علاقة امتدت لمدة ستة عشر عاماً.

شاب علمها معنى الأنوثة، علمها كيف تستعمل كل حواسها حتى التذوق؛ لتصير محترفة تنقل خبراتها إلى الأخريات؛ لتنشئ جيلاً جديداً يفهم المبادئ مثلها، استدرجها كذبيحة تعشق الذبح، تعرف الذابح جيداً.. يحضر السكين، ويسرع في الذبح كما طلبت هي ذلك فلم تعد تطيق الانتظار:

– "هيا عادل، هيا".

هو لم يخيب رجائها وذبحها؛ خرجت الشهقة كشهقة موت، لم تكن تعرف أن السكين لامع، ويدفع نحو مزيد من الذبح، عمل على تحفيز حواسها البصرية والسمعية، الأنفية واللمسية، والضوء في عهده كأنها تعرفه لأول مرة، صار ذا تأثير، يبدأ مع الصباح ويمتد حتى الليل، كانت تسمعه وتشمه، وكادت أن تتذوقه وتلمسه، أثبت نظرية الحسن بن الهيثم: (أن الضوء يعكس سقوطه على الأشياء)، والبصر جزء من منظومة إدراك الضوء، كانا يذهبان للبحر بصفة أسبوعية، ويستخدمان (المساج) في فك عضلات الجسد المنهك طوال أسبوع كامل، يستريحان باسترخاء، تمر أوقات الظهيرة، كأنهما كائنات شمسية ولدت من رحم الشمس، وستموت وتدفن في قبور الشمس يوم ما، تستقبل حبات الرمل عرقهما، ومن خصائص الرمل: أنه يقبل أي نوع من أنواع الماء ليمتص الماء فقط، ولا يزرع به، فضاعت كل قطرة من قطرات العرق هباءً، دون أدنى أثر.

الجبال تظهر في المشهد من بعيد صامتة لا دور لها، الدور الوحيد الذي تلعبه، حجب بعض النظرات عنهما، لتكتمل سخونة الحدث، فالهواء المنعش لا غنى عنه، مراكب الصيد وقفت تتأمل من البحر، ثقل جسديهما على الرمل، ولا تتحرك، ظلت مكانها فترة زمنية، ثم تحركت، و استأنف أصحابها رحلة الصيد بعد توقف لدقائق لم تكن معدودة.

****

في إطار سعيها المضني لتأكيد أستاذيتها في المدرسة وتفعيل المبادئ على أرض الواقع، ودورها فئ تعليم النشء، ذهبت البحر مرة بمصاحبة سندسية ابنه أختها ، التي استطاعت أن تقنع الجميع هنا بالفندق أنها ابنتها؛ لتؤكد على معنى كونها مسئولة، ولسبب آخر، وهو أن يقبلوا فكرة أنها ليست عذراء ولو مبدئياً، بل حرة التصرف ك(مدام).

خرجتْ من البحر بالجسد الخمري المالح، كسمكة مملحة تحتاج إلى الاغتسال، والشمس الكاشفة دخلت في حالة غيم جزئي، فبدأت تلقن سندسية الدرس الأول:

– "يا أمورة.. يا شطورة.. يا حلوتي: إذا سألوكِ عمن كان معي، بماذا تجبين؟.. تقولين: لا أعرف، وإذا حاولوا إغرائك بالشيكولاتة قولي: لا أعرف".

وكمشهد مكرر وسيناريو واحد، باكو الشيكولاتة لسندسية، بكل تلك السهولة، نقلت المبدأ من جيل لآخر في سلاسة وتتابع مذهل، بقصد أو بدون قصد، ولكنه ينتقل ويحقق الغرض المرجو منه، بل يفعل ما بعث به، فيتحول إلى منطق يقبله العقل.

قسمها عادل إلى عناصر، وكل عنصر له غرض واستخدام، يشرحها إلى أقسام: جثة لا حول لها ولا قوة، هذا القسم الأنثوي الخاص بالأسفل، وهذا القسم الأوسط – البطن – ثم أعلى بقليل إلى منطقة الصدر، وإعادة اكتشاف الثدي من جديد، تعامل مع المنطقة الوسطى بيد المحترف الذي يصول ويجول على الجانبين، أما الشعر فهو عنصر مستقل عن بقية العناصر، له مكانة خاصة لديه، لدرجة أنها قصت بعض الخصلات وأهدتها لها ليحتفظ بها في مجلد إلى جوار صورهما معاً، شعر بمذاق التفاح والنعناع والعسل واللوز، تذوق نكهات شعرها المغسول بالشامبو.

في تجربة شخصية مني لمداعبة هذا الشعر، الذي ينساب على ظهرها، وجدته نهر يصب ويفرغ كل ما به من خيرات على الظهر.

ذهبا معاً إلى السينما حيث فيلم ناطق باللغة الفرنسية يتحدث عن أفريقيا يسمى: (المرأة والأرض والمسدس)، تذكر تفاصيله جيداً، انبهرت بالألوان، وتضافر الألوان جميعها كعناصر أبهرتها وفتنتها، خصوصاً اللون الأخضر التي شعرت به يكاد يخرج من الشاشة ويصب على أرضية السينما.

الندى الصباحي الذي صوره المخرج، والأمطار التي كانت تهطل تقريباً معظم أحداث الفيلم، لاحظت أنها مأخوذة في أجوائه، وانفتحت عيناها، تحس بنفسها هناك خلف الكاميرا، حكت القصة، وهي عبارة عن قبيلة عاشت أجواء حرب أهلية ضخمة، راح ضحيتها الآلاف من أبنائها، وبعد اتفاقية سلام واستقرار الأوضاع، تبقى لديهم بعض الفتيات دون زواج، أهلهن ماتوا في الحرب، وُجدن بلا عائل، لا يعرفن ماذا يفعلن؟ فتاة منهن وهى بطلة الفيلم، فاقدة لجزء من الذاكرة، هنا قام المخرج بالقيام بلعبة (الفلاش باك)، واسترجع ما رأت من أهوال كمقتل أهلها أمام عينيها، بل لم يرحموا الطفل الصغير – ابن أخيها –، هربت للغابة القريبة من منزلها، وعاشت مع بعض حيوانات الغابة الأليفة، ظلت من وقت لآخر، تستقصي أخبار الحرب من بعيد من بعض صديقاتها اللاتي عشن مثلها وهربن إلى أن انتهت الحرب.

وكعادات وتقاليد القبيلة، لا يصح أن تعيش فتاة بينهم دون زواج؛ فكان عليها أن تفاضل بين ثلاث رجال: الأول شاعر القبيلة ومصمم أزياء وراقص، ومصمم الراقصات الليلية التراثية، وصانع الألوان التي يتلون بها الراقصين، لديه كثير من المعجبات داخل القبيلة، بينما الثاني من الحراس، هو نائب رئيس الحرس، مسدسه كان مميزاً عن الآخرين، حصل عليه من معركة ضروس بينه وبين ابن زعيم القبيلة الأخرى، انتصر عليه في القتال وفصص قلبه، فصار حامل أهم مسدس في القبيلة كلها، أما الثالث فكان أكثرهم أهمية وهو ابن شيخ القبيلة، والوريث الشرعي لوالده، تقدم لطلب يدها كنوع من أنواع تأكيد زعامته، وأنه قادر على حل كل مشاكل أبناء قبيلته.

بدأت المفاضلة بينهم، بدأ كل واحد منهم في تقديم دليل المحبة والاعتناء المستقبلي لها: الأول – الشاعر – غنى ورقص ثم ألقى على مسامعها شعر قديم، شعر الآباء الأوائل، الذين استوطنوا تلك المنطقة، شعر يحمس ويلهب العواطف، تمتع طوال فترة الإلقاء بحس مرهف وصوت عذب، يمر فيه النهر ويشرب.

ثم وقف الثاني يستعرض قوته البدنية، حكايات عن بطولات مع لصوص حاولوا التسلل وباءت كل محاولاتهم بالفشل، والفضل الأول يرجع إليه.

بينما الثالث لم يجد عناء في استعراض سلطته، والأوامر تنهمر من فمه، ومن حوله لا يفعلون شيئاً سوى التنفيذ الفوري:

سكتت ليلى عن الحديث فسألتها:

– "ماذا حدث بعد ذلك"؟!

– "لقد اختارت الفتاة الشاعر".

– "وهل انتهت الأمور عند هذا الحد"؟

– "لا، بل تحالف الوريث مع الحارس وقتلوا الشاعر، اتهموا الشاعر بأنه ساحر، يجلب اللعنة بشعره القديم على القبيلة".

– "وأين ذهبت الفتاة بعد ذلك"؟

– "الفتاة هربت، عادت إلى مكانها الذي اختبأت به أثناء فترة الحرب"، انتهى الفيلم ثم استكملت حديثها.

– "يا لها من فتاة أفريقية بائسة، فقدت جزء من معرفتها وتاريخها وهربت"؟!

ذكرت أن الفيلم كان مترجماً للفرنسية، لغة الحوار لغة محلية. طوال أحداثه، كانت تتلو الفتاة نصوصاً وترفع عينيها للسماء، نصوصاً تشبه الأدعية، كانت تتلوها بوجه يقطر منه التيه والضياع، حتى وإن لم يكن الفيلم مترجماً، فالكاميرا وقسماتها عرضا المشهد بكل دقة وصدق، سوادها كان لامعاً، تركزت في معظم جزيئات جلدها الشمس، ولم تتركه أبداً، مشهد النهاية .. صور الغابة الشاسعة على امتداد البصر ليس لها نهاية، غابة بكل ما فيها من كل أنواع الحيوانات والطيور والنباتات.

لم تكن تلك هذه هي المرة الأولى التي تذهب فيها إلى السينما، والفيلم لم يكن بالطابع (الرومانسي) البحت، أو (الأكشن) البحت، فقد كان فيلماً اجتماعياً.

عادل حجز تذكرتين على أساس اسم الفيلم فقد خُدِع في الاسم، فأول كلمة فيه امرأة، تخيل أن قصة الفيلم صراع على أنثى مثيرة، يلهث الرجال خلفها، وخصوصاً احتواء العنوان على كلمة (مسدس)، لم يتمهل في السؤال عن قصته، فقد اعتاد في أول كل أسبوع أن يذهب إلى السينما برفقتها، في منتصفه تضجر كثيراً، دعاها للرحيل ا لكنها رفضت، وصممت على استكمال الفيلم، لم تهتم برحيله إلا قليلاً.

حولت عينيها لكاميرا لمدة أسبوع، عاشت أجوائه بكل ما فيه من أحداث، نوع من أنواع المشابهة مع معاناة البطلة في الحيرة والشك والوحدة والهروب، لدرجة جعلتها تكتب اسمه على كفها أسبوعاً بالكامل، وكلما يمحى تعيد كتابته: (المرأة والأرض والمسدس).

****

في يوم فراغ لديها، جلسنا نستكمل الحديث، وفجأة دخل علينا رجل بشارب كث، بني البشرة، دائري الوجه، ألقى التحية وبعدها عرف نفسه:

– "أنا الأمين جابر من مباحث شرطة الأزبكية".

بعد الترحيب به أبلغني أن هناك هارب من تنفيذ حكم، ومتواجد هنا بالفندق حسب الورقة التي تسلمت إليهم، حيث يتم تقيد الأسماء على ثلاث مراحل، وبثلاث دفاتر: الدفتر الأول، وهو دفتر خاص بنا، يشمل الاسم ورقم البطاقة كبيانات للنزيل، ورقم الغرفة والسعر، في آخر ورقة البيانات، إقرار خاص بالمتزوجين، حيث يمضى الزوجين وعند ظهور ما يخالف ذلك، يتعرضا للمسائلة القانونية، الفندق غير مسئول عن من يخالف ذلك، هذا وإن دل على شيء فإنه يؤكد مدى شعور فنادق الدرجة الثالثة التي ننتمي نحن إليها، أو حتى فنادق ما تحت التصنيف، أن بعض الزبائن يكون ورائهم شيء ما، أو هاربين من أحكام، مهما كانوا لطفاء أو ظرفاء، لابد وأن نفترض سوء النية، حتى يظهر عكس ذلك، هم دائماً موضع شك، وسؤال من أجهزة الأمن، بينما الدفتر الثاني يتغير كل أربع أو ثلاث سنوات، يحتوى على أسماء النزلاء، هذا ما يسمى بدفتر الشرطة، يُسَلم منها إلينا، مختوم بختم رئيس المباحث شخصياً، لا يجوز التلاعب به أو حشر بيانات، تُسجل به بيانات النزيل بالكامل، أما الدفتر الثالث فهو دفتر الأجانب، الذي يعتبر من أخطر تلك الدفاتر، لأن النزلاء المكتوبين به، لو كان عليهم أية ملاحظات فهي تمثل اعتبارات الأمن القومي.

تمر ليالٍ، وأزداد اقتناعاً بكل تلك الإجراءات بالكامل، فبعضهم يحاول تصريف أموره ليلاً ، ولا يجد سبيلاً لذلك إلا فنادق مثلنا، فمرة دخل إليّ رجل وامرأة، ألحّا عليّ بالمبيت سألته:

– "الهانم زوجتك"؟

– "زوجتي بكل تأكيد".

– "معك ما يثبت ذلك"؟

– "الورقة بالسيارة أو قد لا تكون غير موجودة معي الآن، وأنا لن أنس لك هذا الجميل، لا تقلق".

ثم اخرج من جيبه نقوداً إضافية على ثمن الغرفة، فبادرته:

– "لا يجوز يا سيد".

وعندما وجد أنه لا فائدة، سأل عن أماكن أخرى تقبل، فأجبته:

– "لا أعلم، أعتذر لك.. مع السلامة".

– "أين من سبقوك؟.. كانوا جميعاً يقبلون".

– "لقد رحلوا.....".

نظر إليّ بغل شديد ثم مضى؛ هزت هي التي ادعى أنها زوجته جسدها هزة عنيفة، هزة غضب بمقياس ثمانية ريختر، هزة تثبت أن الرجل قد أحسن اختيار المهرة التي قرر أن يمتطيها، خرج الفارس ممسكاً باللجام، والكرباج الغير المرئي، يضرب به ظهر المهرة، فتنصاع لأوامره في الحال، المهم في الأمر أنها لم تصهل، وخرجا معاً من باب الفندق، ليبحثا عن جنة أخرى تقبلهما.

مرت دقائق معدودة ووجدت مجدي مقبلاً إلى بصحبه الرجل والمرأة:

– "الأستاذ زبون الفندق الدائم"، موجهاً حديثه إلي الرجل:

– "عذراً، هو جديد هنا" ثم يتجه إلى المفاتيح:

– "تفضل مفتاح أفضل غرفة لدينا، حضرتك لم تعد غريباً هو فندقك".

دخل الزبون بكل تلقائية إلى مكان الغرفة المقصودة، دخل إلى ممر الغرف، كالعالم بأسرار كل شيء وكل الغرف، وقبل أن يغادر مجدي قال:

– "عليك أن تتصهين، تعلم الصهينة ولا تسأل عن كل شيء، فليست كل الأمور تحلها الأوراق، نحن من نصنع تلك الأوراق".

غادر مجدي الفندق وبعدها بحوالي ساعتين غادر الزبون.

وبعدها بشهر تقريباً، تكررت نفس الواقعة مع شاب وفتاة، لكن في هذه المرة كانت الفتاة هي من كانت تتكلم:

–"نحن متزوجان عرفياً، هل تسمحوا بذلك؟ لو لساعات قليلة بأي مبلغ"؟!

– "لا نقبل، اعتذر".

ليبدأ الشاب بالحديث، الذي لم تكن تبدو عليه كل دلائل الاحترام والهندام، مسطح الرأس، صلع خفيف بدأ في اعتلاء رأسه، رفيع الوجه، ولكلام يخرج متساقطاً من فمه:

– "ظروفنا لا تسمح".

صمت لفترة ثم أخرج الورقة التي كُتِب في أعلاها: (عقد زواج عرفي)، وعندما لم يجدا مفراً من الرحيل، ذهبا وكأني القاضي الذي حكم عليهما، وقبل خروجه من الباب:

– "يا أستاذ"؟

رد بغضب:

– "نعم"؟

– "ساعة تكفي لكما أم لا"؟

نظر إليها وهو لا يكاد يصدق، ثم اتخذ الخطوة التالية وأخرج النقود زائدة عن ثمن الغرفة وقال:

– "تفضل".

– "لن أقبل مليماً واحداً فوق أجرة الغرفة، لكن أرجوك لا تتأخر عن ساعة".

دخلا الغرفة ومرت الساعة وخرجا وهما شاكران لي، أذكر قبل الدخول وبعد الرفض، شاب أسود العينين، لم يعد السواد لحالته الطبيعية إلا لحظة القبول، اتسعت حدقة أعينهما، بل تدفق الدم بكل قوة إلى كل مناطق الإحساس، ثم رأيت التورد على خديهما بعد أن انتهيا، وقال جملة واحدة قبل الرحيل:

– "هل تعلم أننا قررنا أن تكون هذه الليلة ليلتنا، سواء هنا أو في أي مكان آخر"؟

ثم غادرا، وجدت نفسي منفذاً فقط، منفذاً لقرار إنساني، وإرادة مشتركة صلبة لا تنكسر، ولا يقف أمامها شيء، رحلا عن المكان تاركان خلفهما معنى كلمة موجود، التي صمما على أن يكونوها.

حكيت لعم سرحان ما دار بالليلة السابقة، فقال باستخفاف:

– "أنت حمار ولا مؤاخذة، زمان كان الاتفاق ما بين السلكاوي والبواب: أن كل تلك الأشياء تتم ثم يقتسما معاً، وأنا كنت أنول من الحظ جانب، السلكاوي النتن كون ثروته من وراء زبائن العرفي وغير العرفي، اسكت اسكت أنت غبي".

تكررت تلك المواقف فيما بعد، أصبح تقيمي ذاتياً وحسب الحاجة، الحاجة التي حركت دوافعهم، الحاجة التي فسرها علم الاقتصاد ونجح في تقسيمها إلى ضرورية وغير ضرورية، أقوم أنا بنفس دور علماء الاقتصاد وأقيِّم الموقف الذي أمامي.

وفي المشوار اليومي المعتاد، ذهبت لتسليم ورقة نزلاء اليوم، للكشف والفحص عن الأسماء تقابلت عند مدخل القسم بالأمين جابر، ألقى التحية ثم سألني:

– "ما أخبار ليلى"؟

– "بخير الحمد لله".

– "من أين ليلى"؟

تملكتني الشجاعة حتى أتكلم معه بكل حزم ولا أرتاب منه:

– "أظن أنك تعرف كل شيء"

– "أعلم كل شيء عنها وعنك، وعن كل العاملين معك، ولا تظن أنك تقوم بعمل خارج نطاق معرفتنا أو سلطتنا، قولي مع من تعمل هي"؟

– "لا أعرف، هل هذا تحقيق"؟

– "تحقيق؟!.. لا، هذا ليس تحقيقاً ولكن كل شيء يتم داخل الفندق أنت مسئول عنه في ورديتك، حتى ما تم منذ عدة أيام، وأنت تعرف ما الذي دار حينها، نحن نعرف كل شيء، لنا عيون في كل مكان".

– "لكن أنا لست مسئولاً عن تصرفات الزبون خارج الفندق، هذا من اختصاصكم أنتم".

– "صدقت، ولكن أنت أكثر شخص تجلس معها، وتعرف كل شيء عنها كما نعلم، دعنا نتعاون معاً"؟

– "إن شاء الله".

– "نحن نُقدِّر من يتعاون معنا، لا تنس ذلك.. سلام".

– "سلام".

خرجت من الحوار بعبارة لا أعرف، مبدأ عدم المعرفة مبدأ ظريف يريح النفس، بل ويريح من ينتظر منك المعلومة، جوابي: (لا أعرف)، لقد نفذ المبدأ داخلي واستقر.

دخلت المكتب لوضع ورقة النزلاء لكي تفحص فيما بعد، يرصون الملفات فوق الملفات، يضعون الأقراص الممغنطة فوق بعضها البعض، وكأن تلك الملفات والأقراص هي كل المعرفة.

يدلي الشاهد بشهادته في قضية ما، وما الشهادة إلا كلام يحتمل الصدق أو الكذب، كل المعلومات الموجودة في الملفات هي مجرد إشارات عن الشخصيات التي كتبت عنها، ولكنها تظل حقيقة ناقصة، لا يعلم أحد الحقيقة الكاملة، حتى كل إنسان، معرفته بنفسه تكون محدودة وناقصة، تحتاج لمراجعة واستكمال بصفة دائمة، يبحث وينقب عن نفسه بنفسه، إذ ربما يكتشف اكتشافاً جديداً.

الأمين جابر ترس صغير في آله كبيرة تجمع المعلومات، وما فائدة المعلومة دون دراية بما تصنعه تلك المعلومة، المعلومة جزء من منظومة شاملة، تشمل الاسم، السن، العنوان، المهنة، ثم ماذا بعد؟.. ماذا عن الدوافع؟! ماذا عن ما وراء كل دافع وظروفه؟!

يتخذ المحقق دور الطبيب النفسي في استخراج المعلومات من المتهم، ينظر المتهم حوله أثناء حديثه، ليجد نسراً أو نجوماً على كتف المحقق، لا يتمدد على (شيزلونج) كما في عياداة الأطباء، ولكن بورش، يخرج بعده ليكون مهيئاً نفسياً للإدلاء بكل شيء، أو هذا ما يحاولون فعله.

تمنع عن البعض منهم الزيارة كنوع من أنواع الضغط، يتم وضعهم في غرف حجز سوداء، يكلمهم الأهل من خلف القضبان، يحملون المأكولات أو المشروبات والسجائر، تهرب الممنوعات أحياناً وقد تكتشف، ثم ينفي المتهم كل صلته بها، ويدعي عدم المعرفة وتدور الدائرة على الجميع بين المعرفة والإنكار، وهكذا الحلقة تضم الجميع لا تنفصل، ليلى مثل عادل مثل سعدونة، مثل ما ستكون عليه سندسية في يوم ما.....

المبدأ الثاني

"صديق العائلة"

منذ أن تعلمت من عادل أنها عنصر من العناصر، وهي تعيش في إطار تلك العناصر وتنفذها بالحرف الواحد، يفككها عادل ويعيد تجميع تلك الأجزاء بما يتناسب معه هو، أما هي فكانت كالتلميذ المجتهد ، بل أحبت أن تكون التلميذ النجيب الوفي لكل ما تربى عليه، حتى مبدأ الصديق والرفقة، منذ الطفولة فهمت أنها تعتمد في ذاتها على طرفين: رفيق أول رجل وضع روحه على كفه وبدأ يتنفس الأخريات، بينما الرفيقة غالباً ما يكون الأمر لديها شبه كل الحياة كالأكسجين، ليلى مائية الصفات، تندرج تحت قائمة الماء في صفاتها، تنطفئ بالنار، تعيش طبائع أحياء البحر وخصوصاً السمك، على جوانبها خياشيم تتشابه بها معها، تتنفس بها حتى تعيش، تقبل الطعم وتبتلعه، وهكذا تعيش كل ليلة، تقبل بعبث القطط بهيكلها بسلة المهملات، ما بين اللحس والمضغ.

أول زيارة منزلية تدركها هي بحسها الطفولي كانت لصديق أختها، الذي صار فيما بعد زوجاً لأختها، رأت السعادة تملأ أركان المنزل بالكامل يوم زيارته، كان يوماً كأيام العيد حتى جاء سؤالها بطريقة مباشرة:

– "هل اليوم هو يوم العيد"؟

رد الأب:

– "لا، لقد زارنا خطيب أختك سعدونة، معه كل شيء، أتى لي أنا بعباءة عربية، ولأمك بشال صوف، وأتى لأخوتك بأشياء أخرى، وكل من أراد شيئاً أخذه.

– "وأين هديتي أنا"؟!

– "هديتك عروسة جميلة مثلك، إنها هناك ضمن الأشياء المشتراة، ما أجملها من عروسة، ذات شعر أصفر وعيون زرقاء، تقول: بابا وماما، مثلك تماماً"، ثم ضحك ضحكة قصيرة ويداعب شعرها، إلا أن الطفلة رفضت العروسة الهدية وظلت تبكي؛ فهي كانت تريد صديق خطيب، أرادت ونيساً حقيقياً تلعب معه، مملكة الجمال صورت لها ونيساً أبيضاً ناعم الشعر، مرسوم الفم مسهد العين، لابد وأن يكون جميلاً، بل وأجمل من خطيب أختها كشرط أساسي، ثم جلس خطيب أختها (حسام) بالصالة، ولم تبرح كلمات الشكر فم الأب والأم أو حتى أخوتها.

ذهبت الطفلة للغرفة، أحضرت مشطاً بلاستيكياً، دعت حسام لتمشيط شعرها:

– "حسام"؟

الأب ينظر إليها بكل غضب، كيف تناديه بدون ألقاب

– "مشط لي شعري"

لم تكن تعرف لمَ اختارت حسام بالتحديد للتمشيط، لم يجد هو مفراً من ذلك، ربما لمداعبة الطفلة، ومع التمشيط صاحبه بكاء، لتخرج من موقف التمشيط هذا باكية من شدته، وسعدونة تضحك وكلهم يضحكون حتى قال الأب ساخراً:

– "سيكون عندك عريس يمشط لك شعرك أفضل من حسام.. صبراً".

ضحكوا هم، وهى ما زلت تبكي حتى رحل حسام، لتعود اليقظة المخلوطة بالحلم.

لا تمل من الأصدقاء، لا تيأس من الانتظار، لا تتعب من الطلب، ظلت تمني نفسها بالعلاقات، حتى أصبح لديها دفتراً كاملاً في سنوات العيش في كنف عادل، وصديقاتها أيضاً في تلك المرحلة، يعشن في كنف أصدقاء آخرين، ينفذن المبادئ مثلها، دب الملل البشري في قلوبهن، وبالتبعية دب الملل في قلبها أيضاً، وعادل نفسه كمعظم من هم في مثل سنه، يبحثون عن بكر جديد.

رحلة الخروج من عادل كانت غير سهلة، فهي الرحلة الأصعب، جاءت أصعب من الصديقات الأخريات؛ فهو الذي علمها كيف تعيش كامرأة، ولكن ما باليد حيلة لتعيش الفكرة حتى لو مات المعلم الأول، المعلم الأول هو (أرسطوها) الأول.. الشخص الجديد، لم يكن بعيداً عن أجواء عادل، صديق يبحث عن وليف جديد، كان يُدْعى (سامح)، لاحظ سامح، ذلك الحصان الجامح الذي يُدعى ليلى، لاحظها في (الديسكو) حينما كانت ترقص، لاحظ هذا الطير الذي يحلق بين أهدابها، طائر الحرية، وفي جلسة واحدة تم كل شيء، ولكن تبقى المشكلة تبحث عن حل.

بعض بقايا عادل لا تزال باقية في تربتها الخصبة، لابد من التخلص منها أولاً، قبل البدء مع سامح، لتكون البداية خالية من أي معوقات قد تعوق استمراره، قد ينتج عن علاقتهما نبات جديد قد يصبح قمحاً أو قصباً، أهم شيء أنه جديد، وبكل تلقائية ودون ارتباك في الموقف، ذهب معها سامح وتم شفط البذرة القديمة لتتوقف البذرة عن الإنبات، صحيح أن هذه هي المرة الرابعة للإجهاض، لكن في المرات الثلاث السابقة كان يتولى المهمة في كل واحدة منها عادل، حلفت أن تكون تلك المرة هي المرة الأخيرة منه، وسائل منع الحمل تستخدمها على نحو مستمر، ثم تأتيها فكرة شاذة، فكرة خارجة من مخيلتها الطفولية القديمة، سوف أنجب طفلاً وتمتنع عن وسائل منع الحمل، وتشاء الظروف ويحدث الحمل، ثم – وبدون علمه – تجهض نفسها كما أنها بدون علمه قد حملت.

يتسرب من غرفتها بعد ليلة صاخبة أغنية (كن صديقي) لماجدة الرومي تدندن بها، طرقت الباب كالعادة فتشير إليّ بأصابعها:

– "كن صديقي".

بضحكة صفراء مكتومة منها، ثم نرقص في الغرفة الضيقة، وكل خوفي أن يستيقظ أحد النزلاء ويرى مشهد الرقص الذي نؤديه.

استقر في أعماقي سؤال: هل أربع مرات إجهاض وكفى؟ أم أن هناك مرة خامسة أو حتى سادسة؟! أريد أن اسألها، ولا يصل إليها شعوري بما أحمله من فضول، قد يدفعها فضولي للكف عن استكمال الحديث الذي يمثل الكتاب المفتوح الذي هو أفضل من سماع فيلم أو قراءة رواية، فكل شيء يتجسد أمامي، تضعك كواحد من هؤلاء الأبطال وكعنصر فعال، جمعت جميع الحيل حتى أخبرها بالسؤال:

– "كم عدد مرات الإجهاض"؟!

سؤال لا تهمني معرفة إجابته كثيراً، ولكنه الفضول، لمَ لا أمثل نزول تحقيق صحفي، أو خبر عن مستشفيات خاصة وعيادات خاصة يتم بها تلك العمليات بأعداد مهولة، أو مقال عن تجارة تدر دخلاً لا بأس به على ممارسيها.

جاءت الفكرة في دمج تلك الأخبار وتقديمها في صورة المستغرب، لأرى ما وقع خبر كهذا عليها، أعلمتها بالخبر ثم استكملت:

– "خبر غريب..؟ هل تعلمين أن نسب الإجهاض زادت في مصر؟ كما يؤكد الخبر بالجريدة".

سمعت فشردت قليلاً ثم قالت بملامح عادية – لا يبدو عليها الدهشة الشديدة – :

– "لا تستغرب أو تتعجب، أنا شخصياً أجريتها ست مرات، أربع مرات منها بسبب عادل، وواحدة مع سامح، وأخرى مع مسعد، بعضهن أزال الرحم، ولكن أنا لم أستطع أن أفعل مثلهن، حتى وسائل منع الحمل لا أطيقها، كنت أتناولها غصباً، ولم تكن تجدي في مثل حالتي إلا قليلاً، وأحيانا أكون أنا بحاجة إلى طفل، ولكني أتراجع فيما بعد، أشعر بكل تلك الأرواح الزائلة من جسدي تلاحقني في كل الطرقات، في كل الأحلام، لا أعرف إلى أين أذهب منهم؟

بعض الأوقات أجدهم يمدون أيديهم نحوي بالحنق، وأوقات أخرى أسمع صراخهم يدوي في رحمي ويستفسر: لمَ القتل؟ ألم تعرفي ماذا تفعل قطة الشوارع بصغارها وهى المسكينة البائسة الغير العاقلة؟!.. تشاكس وتقاتل كل من يحاول أخذ قط واحد منها، رغم أنها حيوانة لا تفهم معني الأشياء مثلك، ينتظر من يريد أن يحصل على أحد صغارها حتى تغفل من فرط تعب الدفاع عن صغارها، وأنتِ في كامل وعيك تجهضينا ونحن مازلنا أرواحاً؟.. لا، لن نرحمك، سنقتلك في يوم ما، لن نرحمك.

بكت بشدة مفرطة وصرخت، أخذتها بين أحضاني محاولاً تطيب خاطرها، دار السؤال في خلدي، كيف لها أن تحافظ على تلك العلاقات؟! أظن أنها تبنيها بطريقة عنقودية محترفة، بحيث لا يمكن لهذا أن يعرف ذاك مطلقاً، تملك أدواتها بطريقة تدعو للدهشة، حتى عم سرحان خريج الصف الخامس الابتدائي، كان واحداً من داروا في فلكها، ولكنه بحرص وذكاء خرج من الدائرة، خرج غير خالي الوفاض، خرج ومعه صورة لها، سرقها من غرفتها أثناء التنظيف، احتفظ بها في جيب قميصه الأيسر، توقعتْ أنه هو من سرقها، ولم تستطع أن تفاتح سرحان في ذلك؛ لأنها تريد الحفاظ على الاحترام المتبادل بينها وبين العاملين، وتسعد بمناداة الجميع لها بلقب أستاذة.

دخلت إليّ في ليلة ووجهها عليه شاش طبي وقطن، ورائحة الكحول الطبي تتطاير منها، إصابات مختلفة ما بين خدوش وكدمات بالذراعين والقدمين:

– "ماذا حدث"؟

– "حاول قتلي".

– "من"؟

– "من كنت إلى جواره".

– "من"؟

– "هو".

لم تجب، شربت الماء ثم دخلت غرفتها، لم تكن تلك المرة الأولى التي أرى فيها كل تلك الجروح، يستغرق التعافي منها من أسبوع إلى عشرة أيام، ثم تترك بعض الآثار البسيطة، تحاول إخفاء بعضها بكريم الأساس، شرحت مرة رؤيتها للعنف:

– "أرى أن العنف استشفاء".

– "استشفاء"؟!

– "هل تفهم معنى الحر"؟

– "أفهم".

الحر والعرق يتصبب على جبينك، ثم تحاول البحث عن أقرب مروحة أو جهاز تكيف، تجد بذلك أن كل إحساس بالحر قد زال، كل نقطة عرق قد جفت، وخصوصاً عند الوقوف

أمام وسيلة التهوية، هكذا العنف يشفيني، أنت لا تدرك قيمة الضرب لأقرب ناس إليك من بني جنسك، ومن نفس نوعك الأنثوي، ثم تعيش دقائق من الاستشفاء....

حوادث طفولة في ذاكرة جسد واحد، جسد ممتد ومقسم بينها وبين الأم والأخت، جسد أدرك قيمة الهيمنة والسيطرة والتبعية المطلقة، تعلم ألا يعيش بمفرده، بل يعيش بصحبة جماعة ترعاه وتوجه مراكز إحساسه إلى حيث ما تريد، أب رسم خريطة الألم على الأم، وصديق آخر سار بواسطتها مستخدماً مفاتيح خريطة الألم، منذ أن تخطت سن المراهقة.

****

خرجنا معاً في شوارع القاهرة بعد انتهاء وردية عمل مسائية تبدأ في الرابعة وتنتهي في الثانية عشرة، دون أن يشعر أحد من النزلاء أو العاملين معنا، طلبت أن نشابك الأذرع، وعندئذ بدأ الاحتكاك بين ذراعي الأيمن وثديها الأيسر، وهو ليس كباق أجزاء الجسم، قطعة من اللحم، ميزة هذا الجزء إنه الأقرب إلى القلب، حركتُ ذراعي حتى يزداد هذا الاحتكاك، تحاول إظهار تلقائية الحركة.

التسكع الليلي لم يجدِ نفعاً، فجلسنا على أحد مقاهي وسط البلد، دارت أحاديثنا عن بدايات مجيئها إلى مصر لأول مرة، اتخذت من نفسي دور طارح الأسئلة، وهذه أول مرة بعد أن كنت مستمعاً جيداً فقط:

– "لماذا اخترتِ فندقنا دون غيره من فنادق العاصمة"؟

ردت وهى تنفث دخان سجائرها في الهواء، بعد أن استعارت سيجارة مني:

– "أنتم أصدقاء رائعون، أحب عشرتكم، وأصبحتم – بلا شك – جزء من أسرتي الكبيرة، كان (طارق) هو أول من عرفني عليكم".

– "طارق؟.. من طارق"؟

– "طارق شاب مصري كان مقيماً في بلدي تعرفت عليه".

– "معرفة فقط"؟!

– "لم تكن معرفة فقط بالطبع، ولكنها كانت مرة واحدة فقط، لا تحسب، المهم طلب مني الزواج وأنا رفضت، فأراد أن يخبرني أنه يريد أن يقوم معي بزيارة إلى مصر، ربما أغير رأيي هناك حينما يعرفني على أهله، الصراحة وجدتها فرصة لزيارة مصر، مصر التي أراها في الأفلام والمسلسلات أخيراً سأزورها، وأسير في شوارعها وأتكلم مع أهلها، قبلت الدعوة بعد دقائق معدودة من التفكير، وصلنا القاهرة وبحثنا عن فنادق كثيرة، ولكن منذ دخولي فندقكم شعرت بالراحة، جاءت الحكاية تلقائية"، ثم ضحكت ضحكات قصيرة متقطعة.

– "أين ذهب طارق بعد ذلك"؟

– "فهمت من خلال كلامه بعد ذلك أن أهله قد رفضوا؛ فرحل إلى بلده في الدلتا، وتركني هنا بلا أموال، أو بأموال قليلة لا تصلح حتى للرجوع، فقررت البقاء ولكن قرار البقاء ليس قراراً سهلاً لأنه يتطلب صديق ينفق ويلبي طلباتي، وليس كل الناس تقدر على مثل ذلك، بيني وبينك كنت أود البقاء بمصر فترة، هرباً من كل شيء هناك".

– "جميل.. أهلاً وسهلاً".

تتكلم بالوجه الجامد مسائلة قول حكاياتها، لا تتطلب عناء البحث عن طريقة لقولها، أو تعلثم في القول، كما لو أنها تتكلم أمام امرأة على سبيل المثال، قالت لي أنا أو قالت لغيري، لا يهم كله في إطار تقضية الوقت.

– "سامح، أين هو من كل ذلك"؟

– "عرفت أنه قد مات في حادث سير بعد ما سافرت بيومين".

– " لا حول ولا قوة إلا بالله يا رب، وعادل أين هو"؟

– "موجود إلى أين يذهب"؟

بعد هذا السؤال، تسلل إليها إحساس الاستجواب الرسمي، فأثرتُ الصمت، وبدأنا نشرب طلبات المقهى، ليست بضعف امرأة قليلة الحيلة، وليست بالقوية التي تبدو عليها كلماتها أثناء خروجها من حلقها، هي وسط، أو تحاول أن تتصنع دور إنسانة وسط. انتهينا من شرب طلبات المقهى واستأنفت الحديث:

– "عبده الذي أتى لي الفندق، هل تذكره؟ عبده.. رأيته أنت بنفسك، هو من أنقذ الموقف، حينما عرفته، عرفته موظفاً في مصلحة الجوازات، عندما ذهبت لتجديد فيزا الإقامة، حصل على رقم هاتفي بحجة الاتصال بي، عندما تكون الفيزا جاهزة، حيث قال أن هناك مشكلة في التجديد، تحتاج إلى يوم أو أثنين، ومن هنا بدأت العلاقة وبدأ الإنفاق، أهلي لم يستدعوني أيضاً، ردوا إلى ما أنفقته، بارك الله فيهم:

– :أرسلوا إليكِ أموالا"؟!

– "لا، لكنهم دلوني على قريب لي يتعلم في القاهرة بالجامعة، يدعى (مسعد)، مشكلة مسعد الوحيدة أنه محدود العلاقات هنا في القاهرة، ومشكلته الأخرى هي أن خلواته معي كانت قليلة جداً، على عكس كمية السحب منه، لديه شعور دائم بعدم جدية الصرف، أخذته منه أكثر مما أنفق.

– "هل قال هو ذلك"؟

– "بالتلميح، لاحظ أنه من الأقرباء".

– "نعم، هذا واضح"

– "في الحقيقة، أكثر شخص أخذ مني على نفس مستوى الإنفاق كان (منصور بك)، رجل أعمال عرفته العام الماضي، في العام ذاته الذي عرفت فيه عبده ومسعد، استطاع تأجير شقة، مكثنا بها أسبوعين، كان كل شيء مجاباً لي، ولولا ظروفه المتعثرة التي جعلته يسافر إلى أمريكا لاستمر حتى الآن، ولكنه شكر لي حسن الرفقة، ترك لي مشكوراً ما يكفيني لمدة شهر تقريباً، وهو على اتصال بي حتى الآن وألجأ إليه أحيانا".

– "أود الانصراف"؟

– "الوقت ليس متأخراً لهذه الدرجة حتى تمشي بهذه السرعة".

– "لن أستطيع البقاء".

– "كما تريد، مع السلامة.. سأجلس هنا قليلاً".

– "سلام".

– "سلام".

رحلت وتركتها خلفي، وكل يوم يتأكد لي مبادئها ومدرستها الغريبة، ولكل مدرسة تلاميذ وأدوات، والسؤال الذي ظل يلح علي: (هل ما زال هناك تلاميذ آخرين"؟

احتفظت بأشياء من أصدقاء رحلوا، منهم فيلسوف اصطحبها إلى المؤتمرات والندوات الفلسفية، اعتبرها تميمة حظ وتفاءل بوجودها معه، زارا معاً عدداً من دول العالم الثالث حتى إنهما ذهبا إلى أمريكا الجنوبية، وفي كل ذلك خزنت هي معلومات وتفاصيل عن بلدان عديدة وتقاليد شعوب، احتفظت ببعض ما كتب في حقيبة سفرها أوراق صفراء، اطلعت علي بعض

منها كتب فيها: (إلى كل من تعلق بالبرودة، وصعد على مسرحه يقدم عرضه، لا. لم تعد الحياة تحتمل كل هذا البرود، لم تعد الأذن مستعدة لصوت الطلقات يدوي حولها ويصمها، لا تمثل دور البطل فوق جثث القتلى، أيها الأحمق الناري، لم تعد البندقية حلاً، لقد صارت الإنسانية حلاً، وهي الملاذ.. والأمان الوحيد لأرواحنا التي تريد الترويض).

فيلسوف ترك فيها ثمرة علم ورحل، ورقات مثل هذه حجر زاوية في علاقاتها بالإنسانية الضعيفة، عرفها وفهمها أن الأبيض متدرج: يوجد الأبيض النقي الذي لا تشوبه شائبة، وأبيض آخر أغمق من الأول، وضع بها كل خبراته الفلسفية عن الحياة، اشترى أقلاماً وعلمها التدوين، أطلق عليها (امرأة النار والثلج).

ضحكت كثيراً حينما تذكرت اللقب، امرأة النار والثلج، والنار أولاً، وهي باردة كجليد القطب الجنوبي، نارية الأجواء كخط الاستواء، سحابة رمادية محملة بكل أنواع المطر الحمضي التي لم تسلم منه، مشبعة بالدخان والبخار والمواد المشعة الخطرة، يورانيوم عالي التخصيب، عند الموت لا تدفن، فهي نفايات ضارة بالتربة.

الفيلسوف الذي لم تذكر اسمه على الإطلاق، حاول الانتحار مرتين وفي الثالثة أصاب، تاركاً خلفه خطاباً إليها، محتواه: (ثنائية بينك وبين الأرض، وأنا دخيل عليها، أنا أحسب نفسي فيلسوفاً، وأي فلسفة في الموت؟ وأي روح أخرى تستطيع أن تلبسني؟ أرى الذات معلقة مع مشاعر فلاح وصياد وبجار، لكل أيدلوجية، وكل كائن حي ولد ورأى الشمس، أبعث رسالتي، وهى ليست الأخيرة، مع كل كلمة كتبتها سابقاً وكل حروف الجر وأنّ وأخواتها وكان وأخواتها، كلهم جميعاً رسائل مني إليكم، ولن تموت بلادي بعدي، وستعيش أفريقيا تحمل لواء الكفاح، ضد الجهل والمرض والفقر، لا يصح أن أقول: الوادع، ولكن أود أن أختتم الرسالة بعتاب

بسيط، كم شبعت وشربت ومات الآخرين من فرط الجوع والعطش، أعتذر إليكم عن ذلك وأقدم أسفي عن سخفي وقبحي).

إمضاء: (فيلسوف راحل).

بين الفيلسوف والمهندس والطبيب والجندي بالجيش، وخصوصاً الجندي، الذي يراها قمراً ملتهباً بالضوء، في صحراء انتظار قدوم العدو، كل هؤلاء وكل تلك المهن لم تمر عليها مرور الكرام، أخذت من كل واحد فيهم شيئاً من صفاته، فأخذت من الطبيب مثلاً برودة الأعصاب ووضع المشاعر في ثلاجة، حتى لو كانت ثلاجة الموتى، المهندس نظم الجزء المرتبك في حياتها منذ عهد عادل الأول فاسم عادل تكرر فيما بعد، علمها المهندس أن لكل شيء وقت وخصوصا العلاقات الحميمة، هي بالتحديد لا تصلح أن تكون في كل الأوقات، بل في أوقات معينة ومحددة، حتى صار ذلك سبب الخلاف الرئيسي بينهما، بينما الجندي أخذت منه فكرة البطل الوطني القابع في مخيلتها منذ الصغر، وهو الذي على استعداد تم للتضحية بكل شيء في سبيلها ولأجل اسمها أولاً.

في سهراتها الليلية، قسمت وقتها كما تعلمت من المهندس، فمن الممكن مقابلة (عبده) في العاشرة و(مسعد) في الثانية عشر، وقد تختم الليلة بوجه جديد، ثم تأتي إلى الفندق بوردية الليل شبه نائمة تنسى إلقاء التحية في أحيان كثيرة، حتى عندما تلقيها تقولها بطريقة ساخرة، ادعوها لشرب النبيذ المهرب من أعين العاملين معي والزبائن، تشرب معي كأساً أو اثنين على الأكثر لأنها ممتلئة بالنبيذ والويسكي على آخرها.

يسري النبيذ مع الدم في الأوردة، الفرق ليس كبيراً بينهما، ما بين الأحمر القاني والأحمر الغامق، يسري النبيذ سريعاً، حتى استولى على القلب محاولاً التوغل إلى ثنايا الروح،

معطلاً عمل الروح لساعات، سارقا إياها من الجسد، ثم تعود في الصباح، في رحلة تسمى (عودة الروح بعد السفر).

سافرنا في الماضي والحاضر ولا نفهم المستقبل، ظننا أننا وقفنا على أعتاب القمر، نتأمل كوكب الأرض من أعلى، نرى أبخرة صاعدة من هنا وهناك، نرى مصر تعج بالفوضى، ثم تأتي العبارة الختامية:

– "تصبحين على خير".

– "وأنت من أهل الخير".

يختلط البحر بالنيل فيها، كمياه رأس البر لدينا، العذب بالمالح، فتكاد أن تتقيأ هذا الخليط الغريب من ذكريات مائية بحرية متوسطية وذكريات نيلية يغلب عليها اللون الأسمر والقمحي، خليط يمر في مجراها الجسدي، كل حبة عرق امتصتها رمال الشاطئ، كشجرة استظلت بها من شمسنا العزيزة.

اجتمع كل هذا الخليط وشكلها في قالب جديد، سحابة بيضاء أخيرة، فوق أرض الصحراء الكبرى، تتلهف للمطر، ويا ترى ستمطر أم لا؟.. تحتاج فقط للرياح حتى لو رياح الخماسين الربيعية المصرية، كل زوبعة محملة بالتراب تقابل تراباً لديها، علها تمطر وتغسل بعدها كل أتربة الهواء، فتعيش الهواء النقي المغسول.

السيد (حاتم) من أصدقائها القلائل الذين رأيتهم بنفسي، كانت لدي تطلعات لرؤية البعض منهم، السيد حاتم كما سمعت الاسم، تناديه بدون أي ألقاب تذكر، يعمل بمبنى الإذاعة والتليفزيون كما قال ذلك أمامي، ولم أعرف كيف تعرفت عليه، لقب (سيد) جاء إلي من تلقاء ذاتي التي رأت الهيئة التي تتمتع بشخصية ذات هيبة، لا يصح مطلقاً أن نطلق عليه

حاتم بدون ألقاب، هو السيد حاتم، تصرفات بك ابن بكوات، وجه أبيض مشوب بالحمرة، الشعر الأبيض الناعم المختلط بالرمادي، شارب تركي مهذب بحرفية، كل ذلك في جسد ضخم، كاد أن يملأ المقعد بالكامل، ارتدى جاكت بدلة بلون أخضر غامق، زار ليلي ودار حديثهما عن فيلم سينمائي وسيناريو، استمر الحديث نحو الساعة، خرج من الفندق وهو في قمة الإحراج، ففهمت أنه لم يُوفق معها فيما جاء به، لم يصل لنتيجة، هي نفسها لم تذكر اسمه مرة أخرى.

تمر الأيام علينا وتكرار أفعال ليلي اليومية الليلية، ما بين خروج أو جلوس أو نوم أو صمت، بدأ حصارها بالأعين بل بالأنفس، أحاطت بي من كل النواحي، سعت في مرة من المرات لتأكيد قدرتها أنها ما زالت مطلوبة، تهرب من يد هذا وأعين هؤلاء، تحطم كل السفن التي تبحر إليها كشط أسطوري نحن نسعى إليه بقوارب تتحطم في بحر ظلماتها، هذا سندباد وهذا علاء الدين يسأل الجان، وهؤلاء جميعاً حمقى.....

دعتني بالطلب المباشر للفراش:

– "أرجوك السرير بارد اليوم، لمَ لا تكون أنت غطائي اليوم"؟

– "اخلدي للنوم، لقد جاء وقت النوم".

ترد وكأنها قذفت كل الحمم البركانية في وجهي:

– "أنت ترى ذلك"؟

– "نعم، تصبحين على خير".

تركتها لأنني لست مستعداً لزرع بذوري بها الآن، لم يحن الوقت بعد، لا عن خجل أو ضعف أو قلة تجربة، إنما عن جهل بماهيتها الأنثوية؟ وما دخل التفلسف بالموضوع"؟

ربما خنق السؤال حلقي، ويريد أن يظهر على لساني، لابد وأن أستعد، أن أحرث وأقلب بذوري كبقرة برية قبل ظهور الآلة الزراعية الحديثة، أدوس كل البذور بالحوافر حتى تنغرس تلك البذور في التربة، وتستقر في أعماقها السحيقة.

علقت نظري على بابها بعد الموقف طوال الليل، ولم ينزل نظري عنه، وكأن الندم يحدثني: لمّ لا؟!.. عندما تكون كل الأمور متاحة والجميع نيام، لم لا؟.. هل لعفة في نفسك؟.. أظن لا، ليس هذا السبب أبداً، إذن فلماذا؟ وأهم عقبة في الموضوع قد أزيلت، ألا وهي موافقتها هي.

أنت فعلتها مع غيرها، وكنت في أفضل حال، ماذا أصابك؟ ، جال في خلدي أن أذهب مباشرة وأطرق الباب، وبالتأكيد ستفتح ونقضي ليلة دافئة معاً، تقدمت نحو الباب وفجأة توقفت ثم تراجعت في آخر دقيقة.

حل الصباح ورحلت، عدت إلى غرفتي بالمنزل، لأغرق في نوم عميق فرأيتها فيما يرى النائم ودار حوار مطول بيننا:

– "هل تُجيدين فن الالتصاق؟ بمعنى آخر: هل أنت ملتصقة بالفعل"؟

– "أظن أني في السابق كنت ملتصقة بالمرآة".

– "إذاً أنتِ أنانية، تحبين نفسك فقط".

– "أنت.. ألم تكن ملتصقاً بالحائط؟ تعشق كل الحوائط مرة واحدة، تلتصق مثل الخفاش في الوجه مثل العبث في الأجساد"؟

– "أنا لا أجيد شيئاً".

– "أنت كاذب".

– "أنتِ كاذبة:".

– "فلنفترق.....".

– "رغم التصاقنا وتعلق مصيرنا معاً؟.. هل ترى أن اللمس لم يعد كافياً؟.. نحتاج الغوص في الأعماق، نحتاج شيئاً من الامتزاج".

ـ أشعر أن الامتزاج كلمة وهمية، الالتصاق يشعرنا بالامتزاج، فهو فن، وإن لم يكن مصرحاً به على الملأ ولكن به نحيا، لا ينتهي سوى أمام القبر الأبدي".

– "لا أعلم ماذا أسميك؟ حتى جميع المواد اللاصقة لا تكفي للامتزاج".

– "كل ما بوسعنا أن نتعلم فن الالتصاق، نبوح بأنفسنا أكثر وأكثر حتى تنفصل الحواجز، و نهيم بها وتذوب داخلنا الفوارق التي تحجبنا، دعينا نعمل فنذوب أكثر مما ينبغي، دعينا نتصرف على نحو أننا ممتزجان، حتى لو كان امتزاجاً سطحياً ظاهرياً، دعينا نتظاهر بذلك، لمَ لا:؟

– "الجميع يعلم أنّ الجدران التي تسكعت أنت بها وعلى حوائطها وتمسحت بها كالقطط الليلة التي تخشى الشتاء موجودة، وتجلس، بل تتربع في وجدانك، أيها الأحمق: كل جدار منهم أنت تحفظه جيداً، اخترقته لفترة ثم ذابت الفوارق، أنت أحمق كاذب".

– "أنت كاذبة.. هل تنكرين أنك ترقصين مع المرآة؟ ترين وجهك الشمسي في عيونهم القمرية الباهتة ليلاً، هل تنكرين؟!.. كلنا مخطئون ويوماً ما سنصلح عيوبنا، هيهات.. كنا نلتصق، الآن هيا بنا نلتصق، استعداداً منا ليوم ما نمتزج فيه كما يمتزج الماء بالتراب، ليكون التربة، فنزرع فينا كل مظاهر المحبة، لن أتركك ترحلين دونما حل".

– "سأرحل. أعتذر لك".

– "ارحلي كما تشائين، واعلمي أني سأعيش داخلك، قدرك الخفي الظاهر في أحشائك، سأعيش كظلك، سأعيش كل شيء يرفض كل شيء سوى التوحد بك، فإلى اللقاء حتى نتوحد.....".

المبدأ الثالث

"فن الجسد"

ذهبتْ إلى القمر، وعادت تحمل جزءاً من شعاعه بين يديها، جسدها كله كان مشعاً بالنور، النور غطى جسدها العاري تمامًا:

– "ليلى.. ما هذا..؟ ليلى"؟!

استيقظت من الحلم، حيث كانت جميلة مشعة راقية،أحببتك في هذا الجسد أكثر من الحقيقي المزعج أحياناً، ذهبنا سوياً إلى سينما من سينمات وسط البلد، لا أعرف ما كمية البشر الواقفين لحجز مكان داخلها، كأنها الفرصة الأخيرة، الفيلم المعروض زادت به كمية (الأكشن) بدرجة تدعو للملل، فخرجنا في منتصفه، وعلى كورنيش نيل القاهرة جلسنا سوياً، وعندئذ تحول الباعة من حولنا إلى أهل كل الخدمات وبيع كل المنتجات من المياه الغازية إلى بيع الفل وحمص الشام، و عند الرفض تُصوَّب نحونا نظرات الغل منهم.

تأملنا النيل والأضواء التي تحيط به، أما هي فقد أمعنت النظر للهيلتون وقالت:

– "لو أردت العيش فيه سأعيش".

جاء ردي ساخراً:

– "الليلة الواحدة فيه بثمن شهر كامل من فندقنا:.

– "المخرج الذي حيكت لك عنه هل تذكره؟ قال إنه طوال مدة تصوير الفيلم ستكون إقامتي فيه".

– "ما أسباب رفضك"؟

– "أسباب يا صديقي، يريد امرأة شطة".

– "شطة؟ .. ما معنى امرأة شطة"؟؟

– "امرأة شطة"، ومع التكرار قالتها بإغراء – مع فتح الفم ببطء – .

– "امرأة لا تحصل على أجر كبير، يحضروها بالأفلام والمسلسلات، تسخن جو العمل، وتسخن المشاهدين بمنظر عاري أو قبلة مع بطل العمل"، وهكذا من أفعال التسخين قالتها بنبرة ساخرة.

– "هل تعلم، لي صديقة من بلدي عملت بفيلم، وتقاضت أجراً محترماً، ولكن المشكلة لم يتم استدعاءها ثانيةً، هل تعرف لماذا؟! لأن شطتها لم تصلح للتسخين كما طلبوا، كانت شطة غير حارقة.. كانت عادية، لم تصب المشاهد بالنار أو تحرك فيه شيئاً يذكر"

– "أين صديقتك تلك"؟

– "تزوجت من مصري".

– "أين تسكن في مصر هنا؟.. في القاهرة"؟

– "هربت منه بعد شهر من الزواج، لا أحد يعرف لها عنواناً، جاءت معي مرة من المرات إلى الفندق. كيف أشارك في أشياء مؤقتة، الفكرة في الاستمرار، ثم إني لست مشاعاً لهذه الدرجة، هل تفهم معنى كلامي"؟

– "أفهم إلى حد ما".

– "ما زالت فكرة الشطة في عقلي تدور وأتأمل".

هي في العموم تعشق الشطة، تحضرها معها من بلادها، وحينما تنفذ يكون اليوم يوماً مراً في حلقها، لم أر من قبل شخص يصنع سندويتشات شطة ليأكلها، شطة من نوع الشطة الحمراء، دون تخفيف بأي غموس، دائماً ما كانت تقول:

– "بلدنا كلها مغرمة بالشطة"، ثم ضحكت لتستكمل الجملة:

– "الشطة مفيدة، لها فوائد هل تعرف ذلك؟ إنها تطهر الأمعاء".

– "لكن لها أضرارها، عند زيادتها تسبب البواسير"

– "أين هي البواسير"؟

– "البواسير مكان في الجسد من الخلف".

– "آه"، ضحكت ضحكة ذات رنين عال ثم أكملت:

– "ولكني لا أستطيع العيش بدونها، هي تسخن وأنا لا أتصور نفسي باردة"

أكلنا ذرة مشوي، لب، سوداني، شيكولاتة، ترمس، افترش الباعة على الكورنيش، لبيع كل ما يحبه ويتهافت عليه رواد الكورنيش من أدوات تسلية، يأكلونها ثم يفرغون شحنة سلبية مع حضور الهواء وصحبة النيل، ويا حبذا لو حضر القمر مع تلك العناصر ليكتمل المشهد وعناصر المتعة، على مقربة منا أنا وهي، مراكب تسير وأصوات أغاني شعبية ورومانسية تتصاعد وتتسرب إلى مسامعنا وندندن ببعضها ونسخر من بعضها.

رأينا أفارقة وآسياويين من ذوى العيون الضيقة والبشرة الصفراء وبعض من ذوي العيون الزرقاء والخضراء والشعر الأصفر، بدا النيل في تلك الليلة كمشهد أوبرالي وفى الخلفية

الموسيقية له كان الكل يحتفل و يبتهج، يبقى لدى بعض رواده عبارة هيردويت: (مصر هبة النيل).

حتى أن ميزة الفنادق المطل عليه، ليست فقط العظمة والفخامة، وإنما كونها تطل على النيل، ذلك في حد ذاته عظمة ونجمة إضافية له، جولاتنا خارج الفندق تركز معظمها بوسط البلد، في يوم أجازتي تتجول أعيننا حيث كنا فئراناً تهرب من قطط كبيرة ستلتهمها، ما لم تختبئ في أسرع وقت، مرت أمامنا عناوين كثيرة، البورصة سوق تداول الأوراق المالية، البنك المركزي المصري، توجسات البلع ملأتنا بالخوف، ونحن نمتلئ بكل أسباب القلق.

انتقلنا من التحرير إلى رمسيس سيراً على الأقدام، نحاول عبر كل ميدان التقاط صورة ذهنية، تسجل ذكرى نبحث عنها في المستقبل، العمارات القديمة وبعض الأسماء الأجنبية وضعت فينا أسئلة: أين رحلوا؟ ومن يا ترى أتى بعدهم؟ لم يستوعبوا وسط البلد مثلنا؟ معها كأني أرى وسط العاصمة لأول مرة، رغم سنوات عمري التي كنت أمر به إلا أن دهشتها جعلتني أشعر بنفس إحساس دهشتها، لأول مرة أتأمل كل عنوان، كل أسم يمر، لهذه الدرجة، متجددة الدهشة؟!

بدأت أحاول الخروج من تلك الدهشة، بأن أقص عليها أفكار طلعت حرب أمام تمثاله وطرز المباني المصممة على الطراز الإيطالي كما أراد الخديوي إسماعيل، كنت متقمصاً في ذلك دور المرشد وهي تسمع أحيانا، و أحيانا تتصنع أنها تستمع.

الوسط هو شيء ما بين الشمال والجنوب، ما بين الشرق والغرب، يجتمع فيه جماعة من كل منطقة يلقون فيه ما في جعبتهم من أشياء، هنا كل منهم سواء من شمال العاصمة أو من جنوبها أو من شرقها أو غربها، حينما يأتون إلى الوسط يحاول أن يفرض عاداته وتقاليده على

أهل الوسط، فازدحام الوسط ليس للبيع والشراء فقط، بل لمشاهدة صراعات السيطرة غير المعلنة ولكنها محسوسة.

ساعات التجول لهذا اليوم لم تجعلنا نلاحظ الجو الملبد بالغيوم واقتراب السحب من بعضها لبعض، فتشابكت مكونة أشكالاً رمادية، في ما يشبه التجانس، تنتظر أمراً بالمطر، بدأت بقطرات خفيفة وفجأة شاطرت الأجواء الأوربية، وهطل المطر بغزارة فوق رؤوسنا، ركضنا مسرعين نحو أي سقف نحتمي به، في ظل عدم وجود مظلة.

السيارات تتسابق في الهرب، لكن حال كل من فيها أفضل بكثير من حال من هم خارجها، حيث سقفها المعدني، المياه الساقطة صنعت بركاً صناعية مؤقتة، ستستمر لفترة ثم تردم، تمتلئ بالتراب مكونة الطين.

هزيم برق ورعد يشق السماء، ومطر وبشر ومركبات تسرع في مشهد جعل ليلى في حالة سعادة، تقترب من البرك الصناعية وتتمشى فيها، وكنت أحذرها من السقوط.

جوقة من الكلاب مجتمعة، أقدامها تختلط بالطين، تسير بحذر في وسط تلك البرك الصناعية.

كانت ليلى سعيدة، ما عطل تلك السعادة قليلاً أننا لم نكن نتجول بحرية، ففي طريقنا للرجوع، وحتى تزيد مدة الجولة والتسكع، مشينا في شوارع جانبية مغسولة بالماء، مليئة بالقطط، وكأن القطط تعيش هنا في حكم ذاتي بحت، فكل قط يختار قطته التي ينجب منها أبناءه.

صراع بين الكلاب والقطط في مملكة وسط البلد الخلفية، كنا خائفين من هجوم مفاجئ، طمعاً في تحقيق السعادة الضائعة، لتنتقم لنفسها من البشر، في صورتنا نحن، من الزحام والمطاردة المستمرة كل يوم.

نترك شوارعاً ونتخير شوارعاً أخرى نسير بها، ففي الساعات الأولى من الصباح لم تنقطع مطاردات الشرطة أو العواء أو المواء، كل شيء يسير على ما يرام، كانت هناك كائنات أخرى تنظر إلينا: رجل وامرأة يتسكعان، فالشوارع بالليل لها رؤساء ومواطنون عاديون، ينتخبون رئيسهم ويمارس عمله في حماية من أعطوه أصواتهم، و صناديق الاقتراع لم تكن مادية إنما لفظية، مبايعة شفهية.

أخبرتها أننا لابد وأن نسير في شوارع رئيسية حتى نصل للفندق، إلا أنها لم تبالِ من تلك التحذيرات فقالت:

– "لا تقلق.. لا تنزعج، سنصل دون أي أضرار"، قالتها وكلها ثقة....

****

في صباح يوم من أيام الفندق، وعلى أصوات مشاجرة ما بين السلكاوي وسرحان عن اقتسام كيلو بن احضره السلكاوي لليلى، فهي من هواة البن، استيقظت وكانا بمطبخ الفندق، يختلف كل منهما على الكمية التي يريدها الآخر من الكيلو قبل الذهاب إليها، أراد سرحان ملء كيس كامل، بينما السلكاوي يريد الاكتفاء بملء علبته فقط، ارتفعت الأصوات وتعالت الصيحات، حتى وجداها تقف أمامهما فصمتا، قررت ألا تثق في أي أحد منهما بعد، وعزمت على أن تحضر حاجاتها بنفسها، أو عن طريقي، كانت من ضمن المشتريات التي أرادتها في يومها الأول من القرار كشكول وقلم:

– "أريد كشكولاً وقلماً"؟

بتعجب شديد سألت لتؤكد الطلب

– "كشكول وقلم"؟؟ أعرف أنه طلب غريب، ولكني في حاجة إليهما".

– "ستكتبين وصية قبل موتك"؟ قلتها باستهزاء.

– "اخرس، لن أموت.. سأعيش من أجل كل البشر،قل لي ستحضرهما أم لا"؟

– "نعم، سأحضرهما في ميعاد الوردية غداً".

استراحت راحة كبيرة، عندما سمعت مني ذلك

كشكول؟ ماذا ستفعلين به؟ تكتبين به جزءاً من الماضي أو حتى جزء من حياتك الحالية؟ ، أو تكتبين قائمة بالمشتريات اليومية؟ أو لا هذا ولا ذاك، ربما تنظم جدول مواعيد المقابلات، حتى لا يحدث أي تعارض بين معاد وآخر.

لديّ فضول كبير في معرفة ما ستكتبه، كل المحاولات السابقة معي ما زالت تبوء بالفشل، وما زال سبب ذلك معي غامضاً، لا يوجد عاقل يسمع امرأة تسرد كل هذه الأشياء ولا يخوض التجربة ولو لمرة، التجربة هي الابنة الكبرى للفكرة، كل إنسان مصاب بفكرة ما يسعى لتنفيذها، وتجريب متعة مشاهدة واقع مجسد أمامه، كل ذلك يقف على جملة: (لو تملكت منه الفكرة) فإنه حتماً سيبدأ في اتخاذ كل السبل الفكرية والبحثية والنقاشية حتى يجد إليها سبيلاً، وماذا بعد التجربة؟ هو سؤال سابق لأوانه؟ لأن التجربة في حالتي تعتمد على طرفين طرف أول هو أنا، وطرف ثان يتمثل فيها هي.

****

دخل إلينا السلكاوي في وقت متأخر، وكالعادة كان عائداً من فرح وبوجه غضوب سألته:

– "ما بك"؟

– "راقصة الفرقة، كسرت ساقها في حادث سيارة".

– "ألف سلامة عليها، وماذا بعد"؟

– "ماذا بعد؟!.. هل تعلم ما معنى ذلك؟ من سيرقص في الأفراح؟.. أمي مثلاً"؟!

– "ما الحل"؟

نظر إلى ليلى نظرة متفحصة، ثم قال:

– "الحل مع ليلى".

– "أنا؟.. أنا أرقص يا سلكاوي"؟

– "مؤقتاً، حتى تُشفى الست، بقليل من التدريب ستكونين نجمة الفرقة، ومن الممكن ألا نستعين بها ثانية، فكري"؟

– "مجدي، اسكت أنت مجنون".

تدير وجهها عنه في شيء من الغضب، وأنا على ثقة أنها اكتفت بكلمة اسكت عوضاً عن شتمه بالأم والأب.

– "هل تعلمين كم تساوي الليلة"؟

– "كل هذا لا يعنيني، أنت مجنون وأحمق، أنت أبن كلب وأمك....."

– "لأ.. لأ، يكفي ذلك، ارفضي بأدب، لا يلزم الشتيمة أيتها السافلة الساقطة، هل تظنين أننا لا نعلم ماذا تفعلين"؟

تدخلت أنا لفض الاشتباك اللفظي بين الطرفين

– "الهدوء من فضلكما، هو عرض شيء وأنتِ رفضتِ. انتهى الأمر".

خرج السلكاوي من الفندق وهو يكمل سبه.....

أكملت حديثها:

– "أنا بنت ناس كما يقولون هنا بمصر عن المرأة التي من عائلة كريمة، معرفة الأصدقاء شيء والرقص شيء آخر، هل تظن أن الكفة متساوية"؟

– "اهدئي يا ليلى".

– "كيف يفكر كذلك؟ وماذا رأى مني هنا حتى يقول ذلك"؟!

– "هو يقول أنه يعرف ماذا تفعلين"؟

– "ما علاقة هذا بالرقص"؟

لم أجبها وانتهى الموقف.

****

بعد هذا الموقف بيومين جاءت تسألني سؤالاً؟

– "كم تتقاضى في الشهر"؟

نفذ السؤال إلى أذني فقلت:

– "لمَ السؤال"؟

– "ما رأيك في المرتب كله في يوم واحد؟ أو في أقل من ساعة"؟!

– "هل هذا لغز؟؟ لا أفهم معنى كلامك"؟

– "ألم تر رقبتي والاحمرار"؟

– "ما سره"؟

– "لا نجد أنا ومسعد مكاناً سوى هنا.. ما رأيك"؟

– "من الواضح أن سماعي لما تحكين من قصص صور لك أنني مغفل أو أقبل مهنة المغفل".

– "لا، لم أقل عليك ذلك مطلقاً، ولكن أنت الحل الوحيد، الشقق المفروشة صارت صعبة، الرقابة مشددة في تلك الأيام ويطلبون أوراقاً".

– "تزوجيه".

– "لا، علاقتنا لم تصل لهذا الحد، أما هنا، وفي ظل وجودك فلن يشعر أحد".

– "لا، لن أفكر، لا يمكن يا حيوانة، هل هذا حجمي وقدري معك، كم أنا صغير في نظرك؟ أو مجرد جهاز تسجيل، تراجعين عليه إنجازاتك في الحياة"؟

– "إذا كانت فكرة حصولك على أموال لا تتناسب معك، قل لي طريقة أخرى ترض بها؟.. في الإسكندرية العام الماضي كنا سنقتل في شقة إيجار، بعدما سرقونا ليلاً أنا ومسعد، تلك الحادثة أصابت مسعد بعقدة من الشقق المفروشة.

– "هذه ليست مشكلتي".

– "هذا آخر كلام لديك"؟

– "نعم. هو آخر كلام".

لم تكن تلك المحاولة هي الأخيرة، كان هناك محاولات كثيرة، لم أستجب لواحدة منها، أصابني شعور بمدى ضآلة نفسي، بل ونظراتها لي؟.. ولماذا فكرت فيّ هكذا"؟

بعد هذا الطلب المباشر بثلاثة أيام – في يوم الأجازة الأسبوعية –، لم تطلب مني الخروج كعادة كل أسبوع ليلاً، ذهبت إلي الفندق، حيث كان مجدي مرتبكاً سألني:

– "ما سبب مجيئك في يوم الأجازة"؟

لم أجد رداً مقنعاً، فقلت:

– "جئت لألقى السلام، أين ليلى"؟

– "خرجت منذ ساعة".

– "متى ستعود"؟

– "أنت أكثر علماً منا جميعاً بها، ليس لها مواعيد محددة في الدخول أو الخروج".

لم يكن حديث السلكاوى مقنعاً لي، قلت على الفور:

– "سأنتظرها حتى تأتي".

– "أمرك عجيب يا أخي، نفترض أنها باتت خارج الفندق، كما تفعل من حين لآخر، أو ربما تعود فجراً، اذهب أنت وسأبلغها سلامك".

هناك شيء ما.. شيء يريدني أن أغادر من الفندق من أجله. خرجت من الفندق وانتظرت خارج العمارة، وبعد مرور ما يقرب من ساعة وجدتها خارجة من العمارة بصحبة رجل، هو لا يوجد أدنى شك في ذلك، لقد قبل السلكاوي العرض، أظن لم تكن أسبابه مادية، فقط بل أسبابه ودوافعه نفسية أيضاً، كم أرادها وكم أذلته؟ يتلذذ عندما يراها تطلب منه الطلب كالحيوان، يستمتع بكل أنّة أو آه تصدر عنها، ربما قبل مسعد بدأ السلكاوي.

في اليوم التالي صارحتها بكل ما رأيت فلم تكذب أو تحاول إخفاء ما حدث، لم أتفوه معها بأية كلمة لمدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع بادرتني بقولها:

– "أنا راحلة".

– "متى"؟

– "سأسافر، لا أريد رؤية أحد منكم من جديد".

– "سافري إلى حيث لا نعرفك مرة أخرى".

في اليوم التالي غادرت بالفعل، بعد أن وضعت بذورها الصبارية الجافة في أعماقي التي تمتص من أعماق أعماقي كل المياه، فلا تجعل لي أي مصدر من مصادر الشرب.

بعد رحيلها بدأ يزداد اهتمامي بكل النوافذ المغلقة، وماذا يدور خلفها....

ربما ليالي سعيدة أو كئيبة، وخصوصاً تلك الغرف التي بها غرف نوم تطل على الشارع، الفضول حول حياتي إلى جحيم مصغر، وسيلة المعرفة في تلك الحالة هي التصنت على الزبائن، وأعرف ماذا فعل هذا؟ وماذا فعلت تلك؟

حتى أكاذيب الزبائن لم تعد مسلية أو تطرب سمعي، لم تعد تترك ذلك الأثر في مسامعي، أريد ما هو أبعد، معظم الحكايات جاءت في صيغة الشكوى والمصائب، والجميع خونة والزبون بطل القصة، هو الوحيد البطل المعذب الذي تحمل الأهوال والصعاب والمشقات من أصحابه، حكاية واحدة فقط بطابع مختلف وخاص وبنكهة جديدة من بعد رحيل ليلى، بطلتها تشابهت ظروفها معها، امرأة من عرب إسرائيل جاءت يوماً ووجدتها قد احتلت غرفة ليلى.

تتحلى بكثير من الحكمة في الحديث، تنفث دخان سجائرها، تدخن نوع لم نسمع به من قبل، قالت أنها ألمانية الصنع، غلب على حواراتها الطابع الثوري، سربت لنا معلومة، حتى نعرف أنها مدام من صندوق أسرارها، وأنها مطلقة وتعول ابناً.

حملت بعض العملات الإسرائيلية، بدأت تلقى بعض العبارات والكلمات الإسرائيلية، أطلقنا عليها "ليلى الثانية"، دلت أشياء كثيرة من تصرفاتها على هوية المبادئ مثلها، تشع أنوثة، شعرها بني مثل لون القهوة الفاتحة اللون، تحاول قدر الإمكان الحفاظ على جسدها ضد عوامل الزمن، غادرت الفندق بعد شهر تقريباً مع الاحتفاظ برقم هاتف السلكاوي في حالة الطوارئ.

شيء آخر جعل أوقاتي أكثر احتمالاً، (كشكول ليلى) الذي اشتريته لها، اكتشفه عم سرحان أثناء تنظيف حجرتها بعد السفر، لولا عدم إجادته للقراءة بطريقة كبيرة لاحتفظ به، وعدم استفادته الكبرى لمجموعة كلمات مكتوبة بالقلم الجاف أحضره لي، وأخيراً أصبح الكشكول في حوزتي ، يا ترى ما الذي كان مكتوباً به؟

بداية الكلام، حديث بصفة الأنا عن فرح استعدت له ولم يتم، ثم أتابع بعض الخواطر المكتوبة بخط متعرج لا يعرف الأسطر فكتبت:

(لا يوجد مشكلة العلم لم يجد لها حلاً في هذا الزمان، توجه صديقاتي إليّ بالمنزل، وقالوا: كلنا تعرضن مثلك لهذا فقالوا الإجهاض هو الحل، لم يكن هناك اقتراحات غير الإجهاض، الحل دائماً موجود، فهل تستطيع المرأة التي ذاقت الجنس أن تمنع نفسها وفي فترة قصيرة، الموضوع كله يتلخص في علاقة حميمية، وحتى يطمئن قلبي سألت الطبيب متى تدب الحياة في الجنين؟ أجابني وكله استهزاء بي: وماذا يعني ذلك ؟.. لا تقلقي لا يبدأ التنفس قبل الشهر الثالث).

لم تكن الإجابة مقنعة، منذ دخوله البويضة وهو حي؟ كيف تنسى ليلى كشكول خطير مثل هذا، أكانت متعجلة بالرحيل إلى هذا الحد؟

تكمل الكتابة:

(رقص وتهليل فرحي أنا – ليلى – ابنه الثامنة عشر ستتزوج، وهل عرفت تلك الطفلة معنى الزواج، ما زالت الضفائر والجدائل تضفر رأسها الصغير، نامت الفتاة وكل ما بداخلها حزين، يوم الفرح لم أعلم أنه قد يكون آخر الأفراح، فكل البائسين والمقهورين سلبوا مني الفرح، لم أحتمل وراحت السعادة، وضاع أول عريس، هرب أو مات أو تزوج بأخرى أو عرف قصة الإجهاض، المهم أنني لم أتزوج).

عنوان مكتوب بخط واضح:

(جاء عادل ومرات عديدة لم نأخذ الكفاية من المتعة، مرة أولى.. ثانية.. ثالثة، ومازال الفرح لم يفهم ليلى، سأموت من فرط الحرية، حتى أثناء الاستحمام، أقف أمام المرآة، وتحت المياه الجارية، أريد أن أخرج إلى الشارع كما ولدتني أمي، أركض وأركض..... مر أسبوع وأعد كل الدقائق، وكل أحاسيس الحياة، أفقد كل لذة مادامت وقتية، جسدي الطري الضعيف، مادام حسي أنا أنتمي لكل مراكز الإحساس الحميمية، فكيف أتمتع وأمتع، حتى الكوافير الذي

فتحته بمساعدة أصدقائي وأحبائي، حاولت أن أجعل لغة الشعر وكي الشعر لغة حية يفهمها الرجال، حاولت تحويل كل خصلة إلى زهرة جميلة، نجحت مرات وفشلت مرات حتى أغلقت المحل، وعدت إلى عادل من جديد.....)

ثم كتبت:

(تعرضت للقتل مرتين، وأنا بطريقي للكوافير إذ بـ(أيمن) أحد الأصدقاء المهملين من فترة يطعنني من الخلف، وعلى الفور أهل الشارع يمسكون به، وأنا تم ترحيلي إلى المستشفى، نصل السكين كان على بعد خمسة سنتيمترات من الكلى، وها أنا ذا ما زالت حية موجودة.....

أما المرة الثانية، حاول (مختار) قتلي بالسيارة و نجوت بأعجوبة، كُسِرت قدمي فقط، ظللت بالبيت شهراً بالكامل، وها أنا ذا حية موجودة).

عنوان في منتصف إحدى صفحات الكشكول كتب:

(فؤاد، متى تعود بالسلامة)؟

(عشر سنوات مذ أن رحلت إلى إيطاليا، ولا نعرف لك طريقاً، ألهذه الدرجة أخذتك شوارع روما ونابولي وتماثيل الإمبراطورية الرومانية؟! عشر سنوات نسأل عنك في السفارة وهي لا تعلم أي شيء؟.. فؤاد هل تذكرنا؟ أخشى أن تكون عضواً في المافيا، أتمنى أن تكون قد تزوجت بفتاة إيطالية.....

فؤاد، جميع أفراد الأسرة عدا أنا يا أخي الحبيب يعتبرونك ميت، أقول فؤاد حي لا تلوم أحد فينا إنها عشر سنوات، أن ندرك أنك حي ترزق، جميع الأحكام الصادرة ضدك سقطت بالتقادم، هروبك لم يعد ذو فائدة).

رسالة لم ترسل

لأنها لا تعرف عنوان المرسل إليه

الرسالة الثانية لفؤاد

(نحن إخوتك الصغار، نفهم معنى السجن مثلك، السجن ليس فقط قضبان أو جدران فولاذية أو أسوار عالية، لا. السجن هو صمتنا في غيابك مقارنة بوجودك، السجن هو القضبان الخفية التي سجن بداخلها كل واحدة فينا، أنا وسعدونة وأختك الصغرى أحلام، هل تذكر أحلام.....

لا يوجد حل سوى السجن، هل يوجد سجن يجمعنا بك؟ ألا تذكر جولاتنا عندما كنا نسبح في المتوسط وتغمرنا مياه البحر؟، ومحاولات الصيد، شوارعنا الضيقة، أيام جمع الزيتون وأيام عصره، أيام تخزينه بألوانه المختلفة وأيام أكله، أيام عرس سعدونة، يوم موت أبينا ودفنه؟، من الواضح أن إيطاليا خذلتنا جميعاً؟.. أنت بهروبك ونحن في انتظارك).

رسالة لم ترسل

لأنها لا تعرف عنوان المرسل إليه

رسالة ثالثة إلى فؤاد

(شهود عيان مما ممن رجعوا قالوا لقد رأيناه في نابولي، حاولنا الاقتراب منه، لكنه كان في حراسة رجال البوليس، شهود عيان آخرون قالوا فؤاد لم يصل إلى إيطاليا من الأساس، لقد مات غرقاً بعد هروبه في قارب للهجرة الجماعية.....

المتوسط الذي طالما لعبنا فيه، هو من خذلنا في تلك المرة، لم تعد ألعابنا الصغيرة البسيطة تصلح له، لكن رغم ذلك لم نعد نعرف من نصدق ولا نعرف ماذا نفعل، لو صدقنا أحد الروايتين.....؟

لو أنت حي: هل مسجون؟ وإلى متى؟ أم أنك خرجت؟ ولو خرجت، أين ذهبت؟

ولو مت في البحر فإنه بكل تأكيد لن يكون هناك لك جثة، فأسماك البحر كفيلة بأكلك وهضمك في غضون ساعة واحدة، أرجو يا أخي أن تكون ما زلت حياً، ونلم الشمل من جديد، وأنا أعدك أن أبقى في بلدي حتى الموت).

رسالة لم ترسل

لأنها لا تعرف عنوان المرسل إليه

عنوان جانبي مكتوب باللغة الفرنسية إلى جانبه عنوان آخر مكتوب: (فرنسا باريس).

(صديقتي منال، دائماً ما تدعوني إلى هناك، تحكي لي باستمرار عن دولة فرنسا الحرة، وعن الأعداد العربية الكثيرة هناك، الكل يعيش معاً، صحيح أنه في بعض الأحيان تتوتر العلاقات ولكنها سرعان ما تعود، شوارع باريس.. متحف اللوفر.. تمثال نابليون، وصفت لي – بكل دقة – كل شيء، في آخر زيارة لنا قبل السفر الدائم لباريس، بل والسعي للحصول على الجنسية، في البداية رحلت في زيارة، تعرفت على بشير فرنسي المولد، بشير كما قالت عنه يعرف العربية قليلاً جداً. أحاول أن أقنع نفسي بالسفر إلى هناك، أو إلى أوروبا عموماً، حتى رحلتي إلى مالطة منذ عدة سنوات، وجدت الجو لطيفاً، عالم مدهش من الجمال، أفكر في السفر والإقامة الدائمة، ولكن لم أتخذ القرار النهائي بعد).

بدأت في سرد أسماء مغنيات فرنسيات شهيرات.. ايدي بافي، كتبت مقطع بالفرنسية من أغنية (لافي ان روز)، من الواضح تأثير منال الشديد عليها، يروون من خلال أوروبا أنها تعيد تشكيل تاريخهم، حتى من تتابع مواقفها، في يوم من الأيام توقفت عن قراءة الأرقام باللغة العربية، لم تتعلم الأرقام بالعربية، وكل الأرقام لديهم إفرنجية

كلمة (مدام) على سبيل المثال لديها، ليست كلمة نعرف من خلالها أنها ليست عذراء فحسب، ولكن لأنها كلمة فرنسية تسعدها كثيراً، حتى أن بعض العبارات لم تكن تفهم المقابل لها بالعربية، فالفرنسية لغة الشعب العادي، وليست لغة الطبقة المثقفة أو حتى الطبقة الأرستقراطية، ليست عن رفاهية أو تفلسف، لغة تتفوق على اللغة الأم، درست الأدب الكلاسيكي، ورغم كل هذه الثقافة والمزاج كانت تذكر هي شخصيات حولها، تعرفهم شخصياً ، يرفضون هذا التزاوج والمزج، وخصوصاً من الأجيال التي عاصرت وجود فرنسا على أراضيها، حتى إن أولادهم لا يتكلمونها إلا قليلاً، بينما هي بين كلمة وأخرى تنطق كلمة فرنسية، حتى تطبعت بطباع المصريين، كوّن الحديث بالعربية لديها خلفية كبيرة عن العامية المصرية، من المتابعة الجيدة لأفلام ومسلسلات مصرية، مما سهّل تعلمها لها سريعاً.

استكملت القراءة بعد عدة أيام في المذكرة

عنوان مكتوب بخط متعرج شديد الصعوبة في القراءة، لم أفهمه كله، كتب تاريخ فرنسا ثم جملة لم أفهمها:

(ندرس جزءاً من تاريخ فرنسا، وعظمة الفاتح الجديد شارل ديجول، والغريب أن القوميين الفرنسيين ممن شاركوا في حرب تحرير فرنسا من قوات النازي، شاركوا في التحرير مع قوات الحلفاء من الأمريكان، فرحوا بدخول أمريكا إلى باريس، فرحوا بدخول المنتصرين على النازي).

ثم العديد من الجمل الغير مفهومه المكتوبة بخط يد مهتزة، وأخيراً جملة مفهومة: (بقيت بلدي تحت الاحتلال حتى بعد الحرب العالمية الثانية)، ثم علامة استفهام ثم علامة تعجب في آخر تلك الصفحة كتبت:

(يتحدون ويخططون وآخر شيء يفكرون به دولتنا).

ثم ختمت كلامها بجملة: (تحيى الحرية).

لم يتبق في المذكرة إلا بضع صفحات قليلة، وعبارات مختصرة جداً، سردت حياة لم تشأ أن أعرفها، ولكن القدر أقوى مني ومنها؛ حيث صار بين يدي مذكرة بتلك الأهمية؟ لا يمكن أن يكون عن قصد، وهي التي اتصلت بالفندق تستفسر عنها، وحينما وعدتها بحرقها شعرت أنها اطمأنت ولكن حرقها سيكون بعد استكمال القراءة.

الغريب في الأمر أنها لم تذكر مصر بأي عبارة داخل تلك المذكرات، حتى ولو بعبارة واحدة، ربما مصر لم تُحال إلى مجرد ذكرى تعيش على أطلالها، أو حتى فكرة تكتبها على ورق فحسب....

عنوان آخر مثير للاهتمام كتب في منتصف الصفحة، ولا أدري هل هي محاولة منها لكتابة قصة قصيرة أم أن هذا الكلمات تعبر عن تجربة حقيقية؟!

أحياناً نموت فقط

(الدخان الكثيف المتصاعد لم يكن يوماً دخان احتراق شيء سوى تبغ السجائر والسيجار الملفوف بعناية شديدة، البايب المعلق بين الشفاه الغليظة وبين الويسكي والنبيذ والكافيار صداقة، المنضدة ممتدة وعلى النقيض الكروش وحافة المنضدة بينهما عداوة، فكيف تمتد الكروش في مقابل حافة المنضدة، صراع ومعاناة والاستقرار في الجلسة ما بين أن تبعد المقعد أو تقترب من المنضدة، صعوبة شاقة لا يدركها إلا المتردد على الحانة....

مالطة وأحببت الحانة، وعزفت أجمل ما تعلمت من موسيقى، بحثت عن تعويض للجسد المنحول، وأشياء أخرى لم تعوض، تركت بلدي وجئت إلى هنا لعلي أجد من يسمع ومن ينصت، الكل يشرب وأنا أعزف على الساكس، كل ما تعلمت من ألحان كلاسيكية

وعصرية، عيناي هائمة شاردة، تهيم في كل الاتجاهات لعلها تجد سلوتها، أو تجد أحداً يعلق، فيقول: أحسنتي.

في عالم من المغيبين، امرأة مثلي تعزف، تبدو غريبة، لقد صارت حقيقة، الغناء أكثر نفعاً من العزف، فإذا استطعت الغناء أغني، في بعض الأوقات عندما تنهك قواي ولا أقوَ على العزف، أشعر أنه يأخذ جزء من رئتي.....

أحضر الجرسون كوب ماء دون طلب، ليعيد ترتيب أنفاسي، أنهيت المقطوعة الأولى، وإذ بنفس الجرسون ينظر ويصفق، الأجواء البحرية الخيالية الشتوية انفتحت، كل ينابيع الإحساس وتدفقت الطاقة، اندفع الادرياليين من جوانب الدماء، سرت في لذة الاهتمام، عادت بعد فقدان زمني كبير، أشار لي بعلامات الرضا مع ابتسامة ملأت وجهه، بينما أنا انحنيت انحناءة خفيفة للتحية، حتى عزمت عزف مقطوعة مفرحة النغمات، ثم أسقطت جميع التهم عن الليل التي لطالما اتهمته بها وأصبح سجادة سوداء مطرزة بالنجوم، وبدأ حواري مع الليل:

أيها الليل، يرونك مملاً وبك شيء غامض، بك كل العبر، لا.. هم يدعون عليك بالباطل، وأنت من صنع الله، وكل ما صنعه الله جميل، تتميز عن النهار بصمتك المتميز، وإن كانت تحكمك بعض المشاكل والأحداث المؤسفة، فهذا ليس من ذنبك، ولا دخل لك فيها، تحرك اللصوص في أثنائك، ومعظم الأفعال القميئة – صحيح – لا تحدث إلا في وجودك، لكن هل ستكون أنت حارساً لنفسك؟!.. أين ذهب البشر الذين يستمتعون بك؟ دورهم يحمونك ويحافظون على سكونك واستقرارك، بل يزيدونك صمتاً وسكوناً، أنت جميل فقط، فما ذنبك أنت بأن الشمس بالنهار، وأن القمر إن لم يكن بدراً لا تكون مضيئاً ومنيراً، اطمئن، النجوم تقود بدور الدوبلير في ظل غياب القمر، تسقط جميع التهم عنك أيها البطل المطلق، لحظة التأمل في تفاصيلك ومعانيك الدفينة الخفية.....

رحلت من الحانة ونمت نوماً عميقاً، في اليوم التالي امتلأت الحانة عن آخرها، ولكن هو الجرسون لم يحضر، عزفت كالعادة و أهملت كالعادة، فرحل الاهتمام المفعم بالنشاط والحيوية، ماتت الآلة داخلي، وأصبحت الأحبال الصوتية تخرج أصوات الآلة فقط دون أدنى إحساس، قلت:

لعله أراد توديعي بالأمس، بعلامات الرضا، ولكن الاهتمام جاء متأخراً جداً، الصراحة عادت كل التهم الجاهزة لليل كما كانت في السابق، وبعد انتهاء الفقرة كنت قد وضعت في قلبي السؤال: هل غاب في إجازة؟ أو لعله مريض أو رحل نهائياً؟ لم أشأ أن أسأل أحد زملائه حتى أعطي نفسي فرصة للغد، تركت كل شيء للغد، وإذا لم يعود بالغد، تعود كل التهم الجاهزة ليست لليل فحسب، بل للحياة نفسها، بين روح تريد أن تنتسب للحياة وتعود من جديد، وروح تعارض هذا بشدة.....).

لم تذكر مطلقاً أنها تجيد العزف على (الساكس فون)؟! استفهام يضاف إلى استفهامات أخرى.

انتهت المذكرة ببعض العبارات الغير مفهومة عن أشخاص ورؤى ثم ختمت بجمل مبهمة مثل:

(هل وجدت من يشرب من الماء فيشبع للأبد؟ تمثل المادة في الإنسان جسده، والجسد جزء من منظومة الكون كله، خُلِق الإنسان من تراب، وإذا اختلطت التراب بالماء يتكون الطين، وما الطين إلا في الأرض، ويداس عليه من المارة).

أجزم أن صديقها الفيلسوف ترك أثراً كبيراً لديها.....

ما سر كتابة تلك المذكرة؟ لا يوجد تفسير واحد سوى أني اعتدت طوال فترة معرفتها على السؤال؟ وكل سؤال حبل يلتف حول عنقي فيشدها و يسحب الأكسجين على مراحل، أكاد أن أدخل في مرحلة هذيان، إذا استمرت الأسئلة تخنقني في مرة ثم تتركني مرة....!

أيعقل أن تكون قد نسيت الكشكول عن قصد....؟!

الجزء الثالث

القطط

اسمي (تاج سر محل)، أعلم أنه اسم عجيب بالطبع، اسم واحد مركب من ثلاث مقاطع، فما علاقة التاج بالسر بالمحل؟!

السر يكمن وراء عشق أبي للهند وللعطارة الهندية، قالت أمي: أن السبب الحقيقي للتسمية أن يوم مولدي كان افتتاح محل الوالد للفرع الثاني بالعتبة الذي أسماه: (تاج محل)

أراد تسميتي (تاج)، ثم عاود القول فقال: لم لا يكون (تاج محل).

صور تاج محل القصر الهندي الأبيض، موجودة في منتصف الصالة، فقد كان من ضمن أشياء عديدة أبهرت أبى بالهند.

تاج سر محل، سيكون تاج هو سر محل أبيه، ولا يخرج سر تركيبات العطارة لأي أحد مهما كان، حتى الصبيان العاملين يبيعون ويشترون بضائع فقط، ولا شأن لهم بالخلطة أو التركيب.

(تاج سر محل فرج)، ظنوا أن (فرج) هو اسم جدي الرابع، وأني بهذا الشكل أقول اسمي رباعي فقال المدرسون:

– "لا داعي للرباعي، يكفي الثنائي أو حتى الثلاثي"؟

– "يا فندم هذا اسمي الثنائي".

ينتاب بعضهم الدهشة والبعض يسخر وأخيراً يسألون عن السبب؟

أوقات كنا نستغرق وقت الحصة بالكامل في تفسير معنى الاسم، تنتقل إلى مناقشات بيني وبين الأستاذ وأصدقائي الطلاب، معظم من تقابلت معهم وتعرفت عليهم يختصرون الاسم في أول اسم فقط، ومن يعرف قصة القصر الهندي، يقول تاج محل، فلم تكن كلمة سر مستساغة كثيراً، فكلمة سر توحي دائما بالغموض والكتمان، وكل ما يدعو للغموض يقلق.

بعد فترة، أغلق تاج محل المحل، وبقى تاج محل الإنسان، توفي والدي وذهبت معه أسرار خلطات انفرد بها وحده، وبعد بفترة وجيزة أُغلق المحل الأول الكائن بحي الموسكي.

ترك أبي صور لتاج محل ومومباي، ولكن الصورة المحيرة صورة أبيض وأسود، واقف إلى جواره أشخاص هنود بملامحهم وملابسهم المميزة، طوال فترة الطفولة كنت أكتفي برؤيتها معلقة وبعدما أدركت، قررت سؤاله:

– "ما سر الصورة المعلقة"؟

– "الصورة منذ أيام ما كنت مع القنصل الهندي بالسفارة الهندية بالقاهرة".

– "القنصل"؟!

– "نعم، سعيت لرؤية السفير، ولكن تعذر الأمر، لم أستطع مطلقاً، كنت أود التعبير له عن حبي للهند، شرحت مظاهر الحب التي تجسدت في تاج محل ودلهي، واسمك أنت نفسه رفضوا المقابلة رفضاً تاماً، واكتفوا بالسماح لي بمقابلة القنصل العام، جاءت الصورة كتذكار للمقابلة ليس أكثر أو أقل".

العتبة كلها وشارع الموسكي بمحلاته، كانوا يعرفون بموضوع أبى مع الهند، وقصة زيارته للسفارة الهندية، وسعيه لزيارة الهند نفسها، بل وحتى صورته مع القنصل، صنفوه ووصفوه بالمجنون، لم يتوقعوا مدى قدرة تلك الأفلام والأغاني والموسيقى ، على أسره لهذه الدرجة،

كان وكأنه يهذى بالهند، ولم يدع ابنه الوحيد في حاله، بل أسماه باسم غريب شاذ، لا يوجد مثله في الهند ذاتها فقالوا:

– "آه لو أسماه: أبو الهول، على الأقل كنا فهمناه وعرفناه"؟

تحول اسمي في فترة من الفترات إلى نكتة مقاهي وسط البلد وما حولها، لكن كما أن كل شيء يكون في بدايته مدهشاً، وتنخفض درجة دهشته شيئاً فشيء حتى تتلاشى الدهشة، ويصير شيئاً اعتيادياً ينكسر حدته مع مرور الزمن، فأصبح الاسم لا يثير الضحك، بل يثير الشفقة على صاحبه، في كيفية حمل هذا الاسم المعقد المركب.

فيما بعد، كف كل الكلام وكل الهمس لدرجة لا تثار معها فكرة وضعه على اللسان، ونسوا أبي والمحلين والاسم.

****

هل ينتصر الجوع اللعين على المعدة الطيبة التي لا حول لها ولا قوة، طاجن واحد من المكرونة الساخن، هل يشبع الإنزيمات التي تفرز وتصب بالمعدة، حتى يبرز إحساس الجوع، المكان ممتلئ عن آخره، عدا مقعد واحد ظل خالياً، بمقهى قريب من الفندق، قبل معاد الوردية.

جلست وشرعت في الأكل، وشرب كوب القهوة على الرائحة، بينما الفتات الساقط مني تنتظره قطة، كل وجودها في الحياة الآن فتفوتة أو فتافيت مجتمعة من المكرونة، ويا حبذا مع إضافة لحم مع الصلصة.

لا تشاء الذهاب، كل عينيها تصميم على المطلب، تتسلق المقعد.. تتشبث به أكثر، وكل ما فعلته أنا الإهمال، الجوع جعلني أظن أن الفتافيت التي تنتظرها القطة سوف تضرني، ونوالها مني تعني عدم إحساسي بالشبع، وهذا ما أرفضه بالطبع.

وجه أبيض ممتلئ ينظر بشغف ويترقب محاولات القطة في الوصول لمرادها، كانت عيناها تتعلقان ما بين عنادي وما بين القطة التي تتعاطف هي معها بكل جوارها، هي امرأة أجنبية – خواجاية – .

الخواجاية تجلس بالمنضدة الكائنة إلى جواري، جلست ومعها رجل وامرأة، دفعتهما زحمة المقهى لرفع درجة صوتهما حتى يسمعا بعضهما البعض، جاء سماعي لحوارهما لا عن تصنت وإنما لقربهما مني، وفي عبارات محدودة على النحو التالي بين الرجل والمرأة تحدثا:

– "هل تفهم العربية؟ هل تتحدث بها بصورة ضعيفة"؟

– "تفهم القليل منه، فهي تعيش منذ سنتين، مثل عبارات التحية والشكر، وأفعال قليلة، من الأفضل عدم التكلم بعبارات متداولة، أكثري من الابتسامات".

ما زالت الخواجاية متعلقة بمصير القطة، والصراع الدائر على الفتافيت، وعندئذٍ جاء دورها الإنساني فسألت الرجل:

– "أود أن أقول له **it is hanger**".

– "**how ? You ?** "

– "**no .. It is a cat... Look** "

– "**If he want** "

– "**pleas tell him or tell me how I say that by arabic** "

– "**ok tell him** : جوعانة"

دار كل الحوار وأنا أسمع وأفهم ولكنني لم أهتم به، إلى أن قالت لي بالعربية المكسرة:

– "هي جعا ..جوعانة شوية شوية **please**".

إلحاح وإصرار الخواجاية، انتابني شعور بالخجل الشديد، ألقيت للقطة بعض المكرونة، التهمت بنهم الفتافيت، ثم لحست الأرض، قالت الخواجية بسعادة بالغة في تلبية طلبها:

– "جوعانة"

عادت القطة تنظر لتكرار المحاولة ولكن، لقد نفذ الطاجن

سألت المرأة الرجل:

– "هي معجبة بك".

– "هدية من السماء، لابد وأن يتم كل شيء على أكمل وجه".

نهضوا من أماكنهم ودفعوا الحساب، قالت الخواجاية كلمة واحدة لي:

– "شكراً".

ظلت عيناي متعلقة بهم، غابوا بعد عبور الشارع، نظرت لي القطة نظرة عرفان بالجميل، ثم خرجت عن المقهى بقفزة سريعة، إلى مكان أكثر عطاءً.

شربت القهوة وذهبت لاستلام الوردية الليلية، تجتمع القطط السوداء والبيضاء والرمادية والبنية على سلالم العمارة، في سعي يومي حول سلال القمامة، التي هي أمام كل

شقة، الصراع ممتد ومحفوف بالدماء، وخصوصاً في أعياد شم النسيم، حيث السمك والفسيخ والرنجة، فرائحة تلك الأشياء تثير لعابهم، تجعلهم يدخلون في صراعات عن أكبر نسبة من وجبة مسائية، قد تستمر حتى الصباح وما بعد الظهر، فمن أين تعلم متى تكون معاد الوجبة التالية؟ فهي في علم الغيب؟

يأكلون، ينامون ثم يستأنفون الحياة، كل ذلك يعتمد على منظومة البشر والآلات والكهرباء.

تتمسح القطط في الحيطان أمامي كعادة التنظيف وتلحس أجسادها لنفس الغرض، لم تلاحظ متابعتي لها من باب الفندق الزجاجي المطل على سلالم العمارة، في ليل يرتجف فيه ضوء القمر، يظهر ثم يختفي خلف سحابة لم تقرر بعد المطر، وردية شديدة الصمت قد يكسر المطر حاجز الصمت، و يتكلم بلغة الهزيم، أقف أنا كقطة منزلية أليفة، أختلف عن قطط الشارع، أنا أجد سقف وجدران وأحياناً لم يتبق لي صفة لم أشترك فيها معهم سوى المواء، تنام القطط إلى جوار الكرتون المقوى، وتتغطى بلحاف أسمه البلاط أو الأسفلت، على أيه حال القطط التي تجيء ناحية الفندق أفضل وضعاً من حيث التصنيف من فنادق ولوكاندات تحت التصنيف التي لم تصل بعد إلى مرحلة التصنيف، حتى يطلق عليه فندقاً، من حيث سعر الليلة الواحدة التي هي عبء على بعض الزبائن، و لم تناسبها أسعارنا، لتفترش السلالم في محاولة إراحة الجسد، ولا نكتشف البعض منهم إلا بالصباح، وأحيانا نكتشفهم على هيئة جثث، حدث ذلك مرتين، وتم التصرف بمعرفة الجهات المختصة، في الحالتين اتسمت ملامحهما بصفات مشتركة، مثل الجبهة ذات الخطوط المتوازية، لون البشرة يختلف قليلاً في الجثة الأولى عن الثانية، حيث لم يتضح اللون الأصلي من شدة الاتساخ، بينما الجسد نفسه تقريباً نفس الهيئة.

أذكر ملامح صاحب الجثة الثانية قبل الموت جيداً، ملامح عجوز ثقيل اللسان، ضعيف السمع، حضر في أول شتاء يمر عليّ بالفندق، ولم يُستَدّل له على عنوان، حيث لم يكن يحمل بطاقة شخصية، تابعنا فيما بعد من خلال معرفنا بالقسم، أنهم لم يتوصلوا لأهله، حتى تم دفنه بمقابر الصدقة.

كنا على وشك الوقوع في الجثة الثالثة على سلالم العمارة، إلا أنه كان مغشياً عليه فقط، وتم نقله إلى المستشفى، تلقى هناك الإسعافات اللازمة، ومن بعد تلك الحادثة، إذ لم يسكن الزبون بالفندق، يتم التأكد من خروجه من العمارة بواسطة البواب، و خصوصاً بوردية الليل – وردية السين والجيم – يزداد القلق بيننا جميعاً، أمام جهات التحقيق لنشرح كيف دخل؟ ومتى؟، والعمارة ثلاثة عشر دوراً، ونحن بالطابق السادس، جزء من الطابق السادس، جزء صغير كفيل بصناعة كل تلك المشكلات لصاحبه الذي يبحث جدياً فكرة إغلاقه، ويتم تأجيل الفكرة كل مرة إلى حين.

نتشارك نحن أصحاب الورديات الليلية فهم أعوان الليل من وحدة وضجر مع مطاعم لا تغلق أبوابها ومحلات وصيدليات... إلخ، وأماكن أخرى محيطة بالعمارة وقريبة منها، نتشارك في بعض الصفات بقصد أو بدون قصد لكنها مشاركة، نتعامل مع القمر مثلاً ككائن ليلي صديق، كونه جسماً معتماً لا ينفى إنه إذا أمسى محاقًا، نشعر أنه قد قُتِل والفاعل مجهول، أو كهلال تراه بالكاد يعلن عن نفسه، وكبدر يستعير صفات الشمس ، فيقول: (أنا هنا وأضيء مثلك أيتها الشمس).

مازال القمر يحير الكائنات الليلة، حيث كانوا في القديم في إفريقيا يعبدونه ويدقون له الطبول، حباً وخوفاً وخجلاً وضعفاً، دهنوا أنفسهم بنفس ألوانه، اتقاءً لشره وأذاه، وعند المحاق

كانوا يقولون: لقد نام القمر فكل من في نفسه شيء فليستغل فرصة غفلته، حتى أثناء السحب التي تحجبه فترة ويتوارى خلفها، يرَوْنه مشعاً بالضوء بالإيحاء.

أشعلوا النار ورقصوا حولها، لعله يستجيب ويبدد مخاوفهم نحوه، ظنوا أنه سيستجيب عند اختفائه صباحاً بحلول الشمس وحلول الدفء والضوء النهاري والحرارة، استعدادات دق الطبول تبدأ فيما بعد الغروب، قسموا أنفسهم إلى فرق، كل فريق يتولى مهمة دق الطبول، وإشعال النار والرقص والتهليل حتى الفجر، وينزاح عن قلوبهم هم اسمه: القمر، فيرتاح الجميع، وقت المحاق تزداد الاستعدادات، ووقتما يكون بدراً يزداد الدق.

من الواضح أن كل الأشياء نفلسفها بالليل، رغم أن أعوانه مملين، الظلام والوحدة، فيصبح أقرب مصباح هو الأنيس، ولو قُدَّر لنا أن نرفع رايات الليل على الجباة لرفعناها، امتصنا الليل فصرنا قطعاً منه، نتعامل بصفاته، نغيب ونظهر كمراحل القمر، في بعض الليالي نلمع كالنجوم ونتلألأ، وليال أخرى نرتجف من برد الشتاء العتي، نهيم ونتأمل، ثم نعود شهباً يحرقها الغلاف الجوي عند اختراقه.

نسعى مثل القمر وانعكاس ضوء الشمس الساقط عليه، فنحن نسعى أيضا لمحاولة وصل العلاقات بأهل الصباح ولا تنقطع أبداً، نسكن المدينة مثل بقية السكان، يعدون نحونا في الصباح ولا يجدونا، رغم عدم رحيلنا بعيداً، ولم تنتهي مهامنا بعد، ما زلنا مثبتين في كروم العنب، ولا نهتم لمكر الثعالب في إفسادها، نسرد طوال الليل خطاطنا المستقبلية للتواجد وللكيان المستقل حتى لا نختفي، وعند الصباح نصير كبخار ماء ونسقط بأقدامنا في مسالك قمرية فقط.

نفهم الأوقات كما نريد، لا نهتم كثيراً بالساعة الليلية، إلا قبل انتهاء وقت الوردية بساعة، إنه أمر الملل الذي يدفعنا نحو صده بعد السؤال عن الساعة، نشعر بالاحتياجات

ونقيم شعائر السهرة الخاصة بنا، ندعو الساهرين أمثالنا للعشاء، نتصفح في الصباح الوجوه الثابتة، تاركين الانطباعات للمناقشات الليلية، نخشى أن يأتي الصباح فيجدوننا قتلة غدر الليل وسعاره.

****

تقل الحركة الوافدة إلينا، أو تكاد أن تنعدم بعد الساعة الواحدة صباحاً، ومن يأتي بعد ذلك، يقوم بإيصاله إلينا عم (سالم عيد)، هو أحدث المنضمين إلى حارسي العمارة، يتأكد أن الزبون قد صعد إلى الفندق، وليس متسولاً أو بلا سكن يقضي ليلته على سلالم العمارة، ويرحل بالصباح الباكر، بعد الاطمئنان يستكمل نومه، إلى جوار مدخل العمارة.

عم سالم يحاول جاهداً أن يكون على الحياد ما بين عم (أسعد الفرنساوي) وعم (أكرم البيومي)، عم أسعد الفرنساوي أقدم حارسي العمارة، لُقِّب بالفرنساوي لعيونه الزرقاء، الغريبة عن سكان منطقته، حتى أن ذقنه تنبت شعراً بنياً فاتح اللون، يعمل هنا منذ ما يقرب من الأربعين عاماً، بدأ كصبي يغسل السلالم ويساعد أول حارسي العمارة حتى صار الآن جامع إيجارات الشقق والمحال التجارية والمكاتب المستأجرة.

عم أسعد لا يعيش له شريك أو خليل، دائماً في شجار مع أي مساعد له، حيث أن مكانته ومركزه يتيحان له هذا، رغم احتياجه الشديد لشريك نظراً لكبر حجم العمارة ومسئولياتها الكثيرة، فندق ومحال وشقق ومكاتب.

الخلاف يبدأ في كيفية الإدارة، معظم من تعاملوا معه كانوا من اختياره هو شخصياً، ولكن سرعان ما يتحول الحال إلى حال سيء، وتظهر الأحقاد بين الطرفين، يريد عم أسعد الاستحواذ على كل شيء، أو قسمة كل شيء، لو طال اقتسام الهواء لاقتسمه مع شركائه في حراسة العمارة.

عم أكرم البيومي هو الوحيد الذي بقي معه لمدة خمس سنوات، فهم وعرف طباعه، عرف مدى أهميته لصاحب العمارة، اختصر السكة وقَبِل الخضوع له؛ فالجميع يرحلون ويبقى هو لأنه هو الذي يعرف كل الخبايا والأسرار، حتى أسرار الشغالات اللاتي يترددن على العمارة.

للمرة الثانية يختصر عم أكرم السكة ويتركهن له، ويعرف أن السكان يعتبرونه في أحيان كثيرة منقذاً وحالاً للعقد، لما يتمتع به من شبكة علاقات متشعبة واسعة.

رفض عم أسعد ترك المكانة التي وصل إليها هنا، بعد ما عرض عليه أجر أكبر في عمارات مجاورة؛ لأنه ذائع الصيت، وأصحاب العمارات الأخرى يحسدون هذه العمارة وسكانها عليه.

الوافد الجديد (سالم عيد) وقع عليه الاختيار من عم أسعد، وكالعادة يوزع مهام العمل بين أكرم وسالم، بداية من كنس ومسح السلالم و توزيع ورديات العمل الصباحية والمسائية، قضاء حاجات السكان، مسح السيارات، وغيرها من المصالح الأخرى.

قائد لا يشق له غبار في أعمال الإدارة على الوجه الأكمل، هو الوحيد الذي يسمح له بإجازة يومين في الأسبوع كي يتمكن من رؤية أهله في الأرياف، كذلك هو الوحيد المسموح له بمنع أي من الشغالين أو الشغالات من دخول العمارة حتى دون الرجوع لصاحب الأمر، إذا ما وجد الشخص لا يستجيب لقواعده الشخصية أو تعامل معه على أنه حارس للعقار فقط، متغافلين عن باقية المهام المسندة إليه.

يرتبط مع السلكاوي بعلاقة صداقة متينة، فكم مرة غض الطرف عن زبائن سكنت بالفندق واقتسما ثمن الغرفة سوياً، عم سرحان على علم بذلك ويقتسم معهما، وصل لدرجة أنه

لا يخشى صاحب العمارة من افتضاح أمره، إنه على ثقة أن صاحب العمارة على علم ببعض من تلك الأمور، ولكن لا يوجد بديل.

ببعض الزهو يقول سرحان:

– "يا جمال فلوس السلكاوي وأسعد الفرنساوي".

حتى كونوا منظومة متكاملة بينهم، اشتركتُ معهم فيها لاحقاً، كنا نقسم المكسب بالتساوي.

استمر هذا الموضوع حتى شعرنا بنقص حاد في إيرادات الفندق، مما أدى لتوقف النشاط والبدء الفوري في تسجيل جميع الزبائن كمحاولة منا لتعويض فاقد النقص في الإيرادات، حتى لا نصبح حرامية مغفلين ولا يبقى أمام صاحب الفندق إلا طردنا جميعاً.

سرقات خفيفة على فترات لن تضره، نستأنف النشاط في وقت لاحق، وبطريقة أكثر ذكاءً ومكراً من السابقة، وكل شك لدى صاحب الفندق لابد ألا يتحول إلى يقين.

****

في يوم من أيام الفندق ذهبت لاستلام الوردية من زميلي، ألقيت التحية فلم يجب مباشرةً وبعد ثوان أجاب فسألته:

– "ماذا حدث"؟

– "توفيت مدام فوزية".

– "لا حول ولا قوة إلا بالله".

– "كانت طيبة ولا تحمل إلا كل خير للجميع".

مدام فوزية شريكة سرحان في أعمال النظافة، أحاديثي معها قليلة ولا أعلم هل لقلة كلامها، أو لأمر آخر؟

– "سنذهب غداً لأداء واجب العزاء".

– "سأذهب معكم بالتأكيد – رحمها الله –".

ذهبنا إلى العزاء، جلست جوار السلكاوي لأستفسر منه عن سبب الوفاة:

– "ما سبب الوفاة"؟

– "المرحومة عانت من مرض القلب، توفيت بعد سماع خبر دخول ابنها الأكبر السجن".

– "لماذا دخل السجن"؟

– "في قضية سرقة بالإكراه".

– "هل لديها أبناء آخرين"؟

– "لديها ابنة و ابن، نفكر أن تحل الابنة مكان الأم، سنأخذ إذن صاحب الفندق، أما ابنها الأصغر – ثم أشار إليه بأصبعه – الجالس هناك، سافر إلى معظم الدول العربية ولم ينجح فى أي منها مطلقاً، وهو الآن بلا عمل".

– "أين الأب"؟

– "الأب مات منذ عشر سنوات تقريباً، كان يعمل معنا وبعد موته عملت فوزية عوضاً عنه".

ماذا يعنى تبادل الأدوار لتلك الأسرة الأب يسلم الأم، والأم تسلم الابنة، و قد تسلم الابنة من يأتي بعدها من أبناء دخلوا الدائرة.....؟!

جاء المعزون محاولين مواساة الابن والابنة، ولا يدرى الكثير من المعزيين، ماهيات هذا الموت، وكيف يكون؟ وماذا سيكون؟.. هم يعرفون أنه فقد، ولا يدرون أن الفقد عنصر واحد من عناصره الكثيرة التي تضم وحدة الروح، بعدما كانت وسط البشر هنا على الأرض، تبقى وحيدة إلى أن يحين لها وقت وتخرج من العزلة.

خرجنا أنا والسلكاوي من العزاء نترحم على الست فوزية، ونطلب الرحمة والرأفة لها وللأسرة البائسة، الحارة التي أقيم بها الصوان مضاء أجزاء منها وهناك أجزاء أخرى معتمة، لا تعرف لها منفذاً واحد للضوء حتى لو كان صغيراً.

خرجنا من حارة لحارة، ثم إلى شارع صغير، ثم إلى شارع أكبر، حتى نجد وسيلة مواصلات نعود بها من حيث جئنا.

ظلت نظرات فوزية، في أحاديثي القليلة معها في إطار العمل تراودني، تجيء وترحل، كل نظرة تثقب قلبي وتضع مسماراً، وتعلق صورة حزن، نظرات لا يرتاح لها أحد، لا تقول ولا تريد أن تقول، نظرات صامتة وكأنها لوحة زيتية، أشعر أن السؤال خانني لماذا لم أسال؟ ولكن عن أي شيء أسال؟! أأسأل عن نظرات لا تقول ولا تريد أن تقول؟.. مجرد حفنة مشاعر مكتومة بالوحدة والانكسار والانتظار.

وافق صاحب الفندق وأكملت ابنتها مسيرة الوالد والوالدة، قليلة الكلام، تؤدي ما عليها من واجبات تنظيف في شبه سكون تام للشفاه، لم أكن أريد التركيز على العينين، إلا أن تكون حاملة لنفس النظرات بالوراثة، لا أحتمل ذنب التفسير من جديد، أو حتى لأن أصاب بفضول المعرفة.

بعد عدة أيام من الهروب، وقعت نظراتي واصطدمت بها، هي نفسها نظرات الأم، تزيد عنها بحاجات جديدة، كالشرود والموت على سبيل المثال.

أحضرت ابنتها في يوم من الأيام، بنت من بناتها الثلاث، ألقت البنت التحية، والمفاجأة أنها ورثت نظرات الأم والجدة، مع إضافات جديدة كالمرض والعجز المبكر.

ففضلت العودة لوردية الليل، لم أستطع البقاء مع هذا الحصار، حصار إرث ثقيل من الحاجات، والأمراض مما تنتقل عبر الأجيال حتى تصبح مستوطنة ومتأصلة في الأجيال التالية، أمراض لا تخون أصحابها، بل ترافقهم كظلهم، لها ملامح العوز والنهاية، ولا تعرف الاستئذان، بل تقتحم كمصير محتوم، ينتظر الكلمة الأخيرة والنفس الأخير.

كل ذلك يفسر جزء من النظرات؛ لأنها كانت أوضح في البنت منها في الأم والجدة، حتى وإن قالت ماذا ستفعل في يوم ما أو ماذا تريد؟.. الأهم دائماً الفعل، جميع من سبقوا الابنة من قطط كانوا يكتفوا بالمواء مهما اختلفت الأنواع، صحيح أن النوع الشيرازي أغلى ولكنه في نهاية المطاف من فصيلة القطط، نمر ما بعد الحداثة، قبل أن أنتقل لوردية الليل، ودعتها وداعاً بكلمة، كما ودعت أمها بالضبط:

– "سلام".

– "سلام"

كلمة (سلام) لا تعنى الكثير لها، فهي في رحيل وسفر لا نراه نحن لكنه محسوس، تسافر في أزمنة ماضية أو مستقبلية، أهم شيء أنها ليست من الزمن الحاضر.

****

معظم من يتردد على الفندق من الصعيد من أسوان أو الأقصر أو قنا أو سوهاج، وغيرها من محافظات الصعيد، من لديه زيارة طبيب أو مصلحة لا يقضيها إلا بالقاهرة، أو لشراء مستلزمات العرائس من العتبة والموسكي، العاصمة تصب بها كل روافد الدلتا والصعيد ، وهي في نظرهم نهر لا ينضب مطلقاً، نهر خالٍ من التماسيح، نهر عذب حنون يلبي جميع المطالب التي يقصدونها، أطباء العاصمة مثلاً يمثلون كهنة الفراعنة القدماء – كما ظن الشعب العادي – يعلمون كل أسباب المرض ويعلمون كل أسباب الشفاء، يرون أن بأيدهم بعض قدرات الشفاء على الأمراض المستعصية، تبدأ جلسات العلاج بالتحقير من شأن أي شخص آخر سواهم في بلاد المرضى، بل أن هنا في القاهرة بدأ العلاج الحقيقي، مزق كل السابق، شعارهم: (ابدأ من جديد).

ضيق مساحة الفندق وخلوه – تقريباً – من أية وسيلة ترفيهية عدا التلفاز الكائن بالغرف، والذي لا يعرف سوى القنوات المحلية، تمنع المصنفات الفنية وجود تلفاز بالصالة إلا بتصاريح من الجهات الأمنية، مما أدى أن كل الزبائن تقريباً يضيقون ذراعاً من الغرفة ومن قنوات التلفاز المملة، ولا يعرف شيئاً في القاهرة، يبدأ بالليل حلقات من السمر معي أو مع الموظف الموجود، يبدأ الحديث بالسؤال عن الحال والصحة؟.. يتطور إلى أن يصل إلى مرحلة الشكوى، كأن الموظف منوط به حل مشاكلهم، على الرغم من ضيق صدرنا بما يحكون ويثرثرون، ولكن أحياناً نجدها في حديثهم حيوات لم نعشها من قبل، حكايات عن المرض والطمع وخلافات عائلية وأسرية ونصب وقتل، وكأنهم أخيراً وجدوا شخص خارج بلدانهم يقصون عليه تلك الحكايات فيستريحون قليلاً بعد الفضفضة، ثقتهم أن الشخص الذي يحكون له قد لا يراهم مرة أخرى، وليس على صلة بمن يحكون عنه، وصل الأمر أنه يوجد من كان يعيد الحكاية على جميع العاملين بالثلاث ورديات، وكأنه ذنب يكفر عنه ونكفر نحن معه عنه، كنا بمثابة المسجل الذي يستخدمه الطبيب النفسي، يسرد المريض كل ما يعاني منه ليكتب له

عن علاج، ولكن العلاج لدينا مختلف، فعلاجنا الاستماع وليس الإنصات، لعل و عسى يكرر الزبون الزيارة مرة أخرى، وبالفعل هناك زبائن تأتي إلينا مستغلة تلك الميزة لدينا، وهي في أحيان تكون عنصر ترجيح لكفة الفندق على فنادق أخرى منافسة، في عالم أصبح لا أحد يستمع فيه لأحد، الجميع يريد أن يتكلم فقط عن أحلامه وطموحاته المستقبلية الشخصية.

كنا نحفظ بعض الحكايات عن ظهر قلب، ونتمنى مع بعض الأمنيات التحقق، نتعاطف مع البعض، والبعض الآخر لا يستحقون الهواء الذين يتنفسونه، نبدأ بالحسد بل والتندر على حكاياتهم، سواء مع أنفسنا أو كعاملين بالمكان، كان همنا أن نظهر بالمظهر اللائق، طالما سلوك الزبون غير مؤذٍ، ومن أكثر ما كان يطرب مسامعنا، الفتيات الهاربات من أهلن ويسكنَّ لدينا، ظناً منهن أن القاهرة كوكب آخر يصعب الوصول إليه، ولا يعلمن أن أول ما يبحثون فيه هي فنادق الدرجة الثالثة، حقائب السفر ذاتها التي يتركها الزبائن على سبيل الأمانة بعد انتهاء مدة الإقامة على سبيل تأدية مشوار والرجوع بعد قليل، قد تتحول إلى مشكلة وحكاية، فهناك من لا يرجع، وبعد فترة تقسم محتوياتها على العاملين.

لم يخلو المكان من المهووسين والمرضى النفسيين، في الحقيقة لو تم مقارنة هؤلاء بليلى، هي لم تصل إلى مرحلة الهستريا أو المرض النفسي، كما رأيت من (سُهير) الزبونة التي تنقلب فجأة إلى ذاكرة مفرغة من الأشياء والحاجات لترى أشياء لا نراها نحن، وتقابل أشخاص لا نراهم، كل ذلك وهي تجلس بمكانها دونما حركة، تتقن جميع أدوار التمثيل حتى المرأة المغتصبة، ثم تشم رائحة غاز خانق وتسقط أرضاً، لتقوم بدور المرأة التي تحتضر، أراقبها وكلي استغراب، تجلس على أحد كراسي الفندق وتهيم في دور المحبوبة التي تنتظر حبيبها، تبدأ الجلسة بالعتاب واللوم على التأخير، وتنتهي بالحب.

ظلت على هذا الحال لساعتين تقريباً، تمثل معظم الأدوار، جاء في معظمها أدوار المرأة المقهورة، وبعد تصفيق الجمهور الوهمي والتحية، رحلت وتركت خلفها الدهشة وحقيبة سفر، تركت معاني أخرى معنوية مثل أسئلة: كيف؟.. لماذا ؟.. من؟

الكثير من الحكايات تركت تلك الأسئلة وعلامات الاستفهام أمام عيناي، كسكاكين تجرحها، جاءت فرص وعروض لتغير حياتي وترك المكان أو الفرار منه، لكن ربطني شعور إدمان المعرفة، حافظة حكايات وذكريات من الجائز أن أصاب بالملل أو بالضجر بعد فترة، ولكني حالياً ما زلت مستمتعاً، حكايات تبحث عن تفاصيل شخصية أعمق، لكن يظل خيالي يرتب البدايات التي لم تروَ في محاولة مني لمعرفة أصل الحكاية، ويضع كلمة النهاية، فكثير من الحكايات تنتهي في منتصفها، تظهر كلمة النهاية باهتة وغاية في الغرابة، عندما يذهب السارد الذي يرويها من وجهه نظره، وغالباً ما يظهر في صورة المظلوم أو المنتصر، ذي الرأي السديد والنظرة الثاقبة، أما الظالمين فقد كانوا قلة قليلة تكاد لا تذكر، تبقى كل حكاية ظل لحقيقة ناقصة، شاء البعض منهم حجبها لأسباب شخصية أو لأنها لا تفيد المستمع، مع الأسف معظمها مبتور لأننا محكومين بوقت الإقامة.

تنساب معلومات ومصادر معلومات عديدة أمامي، ليس له أهمية في معرفتها، ولكن في فترة وجيزة صار لدى خبرة بالأمراض والأعراض والمهن، رأيت عملات غريبة، تعرفت وشاهدت حقائق جعلتني أتقن الشخصيات وأعرف مفاتيحها رجالاً ونساءً، الفروق ما بين البحري والقبلي من مجرد كلمات قليلة، أعرف الجهة التي أتى منها.

وبعد تعمق ومرور مدة أطول من البقاء بالفندق، أدركت المحافظات هذا من الغريبة وهذا من كفر الشيخ، في جلساتي مع أصدقائي أبدأ في استرجاع وتذكر تلك الحكايات، وتكون عبارة عن حكايات سمر، نصحوني بتدوينها، وتكون مرجعاً هاماً لي في الحياة عن فترة

من فترات مصر وتاريخ بعض الدول العربية التي يأتي أفرادها إلينا وبلا قيود ينتقدون أنظمتهم السياسية بكل حرية وبلا خوف، ولكن البعض منهم يتحدث بتحفظ أو ربما رغبة منه في عدم تشويه صورة دولهم أمام أجنبي غريب مثلي، ما زال الأكثرية منهم يتشبثون بأمل التغير كأشخاص طبيعيين نشتاق لرؤية البعض منهم مرة أخرى، بل ومعرفة أخبارهم وماذا أصابهم؟ ولم لا؟ فالكثير منهم نتمنى له الشفاء العاجل لأمراضهم وأوجاعهم، يصل الأمر إلى إهدائنا هدايا مثل زجاجات عطور، بل ووجبات غذائية، وينشرح صدر السلكاوي بالتحديد بها، نتعاطف بالدموع مع مسافرين إلى دولهم، شكلوا لنا مصدراً من مصادر السعادة أثناء فترة وجودهم لما بهم من روح جميلة، صحيح أن وسائل الاتصال الحديثة قربت المسافات، إلا أن البعد نفسه وخاصة إذا استمر الزبون أكثر من أسبوع، يكون من الصعب علينا وداعه، إنسان يودع إنساناً.

الحوارات كانت تمتد لساعات، ندخن السجائر بشراهة، ويدور الدخان في دوائر، في وجه من أستمع إليه، نتشارك في التدخين، نتشارك في الروح الواحدة، حيث إن السيجارة، تخلق نوعاً من التفاهم بين الأمزجة، أياً كان منشأ المزاج الشخصي بأية دولة.

حتى الزبائن من النساء يتجولن مع بعضهن، الجولة تشمل مقاهي القاهرة العامرة، وأحيانا يذهبن إلى البارات، ومع غير المصريات تكثر جولات خان الخليلي والقلعة، أتحول وقتها بالفطرة إلى مصري يحمل عبئ التاريخ وكل الأماكن والتواريخ في أجولة وأضعها على كتفي، وأمضى قِدَماً، ومع كل مكان يخرج من إحدى الأجولة تاريخ وذكرى.

الزبون القادم من زيارة الأهرامات أو رؤية متحف مراكب الشمس، وعن فكرة اسم مراكب الشمس، وما معنى مركب الشمس؟ وأسباب بناء الهرم وعن قيمة الفرعون؟ ودفن الفرعون، وكل هذه الأبنية الحجرية ذات الشكل الهرمي، ولم يعرف أحداً أين مقبرة الفرعون داخله؟ وكأن معرفة مكان مقبرته تفقد بها مصر شرفها، إنه الفرعون.

بناة الأهرام أنفسهم لا يعلمون، كان كل همهم تنفيذ أوامر الملك ووعده بالبعث من جديد في زمن ما، حتى يخلص شعبه من ظلم وفساد حاكم آخر، ويستلهم الشعب من الفكرة القوة.

قدرة بعض الزبائن على قراءة اللغة الهيلوغريفية كانت عظيمة وعن دراسة، سألني أحدهم:

– "هل تعرف أن تتكلم بها الآن"؟

– "لا أعرف، فهي لغة قديمة جداً يدرسها الأكاديميون في كليات التاريخ والآثار، لقد عفا عليها الزمن".

اللغة الهيلوغروفية لغة العامة، واللغة الديمقطية واللغة الهيراقطية لغات مقدسة يكتب بها على الجدران والبرديات.

يقشعرون أحيانا من أول وهلة لمنظر الأهرامات وأبي الهول، يصفون شعورهم بأنهم لم يكونوا ليتوقعوا كل تلك العظمة.

يتساءلون دائماً عن ثقافة (القط الأسود) كما رأوه بالمتحف المصري، وعن حكايات الحفريات الحديثة التي كلما يحفرون يجدون القط الأسود المميز الذي يقف كنمر، كانوا يضعونه عند مدخل البيوت كرمز للقوة؛ لتؤكد لمن ليسوا من أهل البيت أن القط له أظافر تنال ممن يحاول إيذاءه رغم صورته التي تبدو ضعيفة، فهو قط لا حول له ولا قوة، ينتفض إذا لزم الأمر.

قطط سوداء أو (بيس) باللغة القديمة، فكرة اللون الأسود لم تكن مفهومة بالقدر الكافي حتى لعلماء الآثار، ثقافة القط الأسود انتشرت في شتى ربوع مصر، اختلفوا في العبادات أحياناً، واتفقوا على القط الأسود.

زيارات المتحف المصري، شملت أيضاً حجرة المومياوات وحديث خلود العقيدة الراسخة في قلب وعقل المصري القديم، والعجيب أنهم خلدوا الملوك والملكات والأمراء والأميرات والوزراء ومهندسي الدولة بالتحنيط، و نسوا الشعب الكادح العامل الذي من المفترض أن يحكمونه عند البعث.

منف.. طيبة.. تل العمارنة.. الإسكندرية، لدينا رواد للفندق من عواصم مصر القديمة، يتجاورون معاً الآن في سلام.

ظلت العواصم جنوبية لفترة، حيث علاقتنا مع أفريقيا كانت أقوى، حتى جاء الإسكندر فتحول الاهتمام إلى أوربا.

لدينا هذا النموذج المصغر من عواصم مصر القديمة في القاهرة، فتتردكلمة (عمار يا مصر).

المناقشات تخطت الحال والصحة والحياة الخاصة إلى الحياة العامة، حملت أنفاساً سياسية، فأي تعديل وزاري يؤدي بنا إلى حالة من الجدل والنقاش، ويدور حول الوزير الفلاني الكلام المباح والغير مباح، في نقاشات علنية، وفاءً للجمهورية التي صنعوها في الظل.

ترى كل شيء، تنتقد كل شيء، ثم ماذا بعد؟.. تسكت لفترة زمنية غير معلومة، يجتمعون بلهجة كل محافظة وطريقة حياة كل إقليم، وما بين الجلباب والقميص والبدلة، تتطور عبر الزمن بين الألوان النسائية التي اشتهرت في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، ثم

الألفية الثالثة، تسير فيها الموضة بمعدل غير مسبوق، كل شهر أو شهرين موضة جديدة تدهش عن السابقة عليها.....

****

تدفقت الشمس على دفعات: دفعة مع الشروق، ودفعة ثانية مع منتصف النهار وأخيراً آخر إطلالة كدفعة ثالثة مع الغروب، تلك الدفعات الثلاث مروا على (راشد) في آخر يوم يقضيه بمصر، تركز معظم حواره عن ثلاث ألوان هي: الأزرق، الأصفر، الأبيض، راشد زبون سيسافر إلى فرنسا في طائرة الفجر، أخرج صورة من جيب قميصه لمحسن صديقه، الذي يسافر إليه، المقيم منذ ما يقرب العشر سنوات، وكم التغير الذي طرأ عليه، فكل لون أسود لديه تحول إلى الأبيض والأصفر والأزرق تقريباً، الأبيض كريم لتفتيح البشرة، والأصفر اختص به شعره الأسود ، أما الأزرق فكان لعدسة لاصقة على عينيه، قال راشد محدثاً نفسه:

– "ما الأمر يا محسن؟ وهل يا ترى لابد وأن أتحول إلى نسخة منه؟ بل كائن يخفي كل ما هو أسود؟ ما سرك يا صديقي العزيز"؟!

الصورة في صمت مطبق لا تنطق، يمر الوقت وكل ساعة تقربه من باريس إلى الشانليزية وإلى اللوفر.. إلى ميدان الحرية.. إلى قوس النصر.. إلى برج أيفل، ثم تحدث موجهاً السؤال إليّ:

– "هل يجوز أخذ الشمس إلى هناك"؟ قالها ساخراً ثم أكمل:

– "أو حتى بعضاً من شعاع الغروب، إذا كان شعاع الشروق صعباً"؟!

أي شيء يا أوروبا، على ما يبدو أن الأسئلة تدور لديه وتهبط إلى الأسفل، ثم تموت،كالحياة إلى زوال، يسافر حيث الحرية والإخاء والمساواة، ولكن أي حرية وأي مساواة وأي إخاء، وكل أسود تحول إلى أزرق وأصفر وأبيض

يحدثني عن محسن مرة أخرى، قال محسن:

– "هنا، لا يوجد إرغام أحد على فعل شيء ما، الشكل لا يهم، الأهم العمل، أكمل محسن لا يوجد لديهم مشكلة في الأسود أقسم لك بذلك، المشكلة فيّ أنا يا صديقي العزيز".

جاء نابليون البلاد التي هي بالضرورة بلاد محسن، جاء ممتطياً فرسه، شاهراً سلاحه، ثم رحل ببعض من قطع الآثار ومجلدات وصف مصر تحت إبطيه، ليس وصف مصر بل تفصيص مصر، تمنى راشد لو أن التاريخ ينقلب، فيأتي نابليون ومن معه كمفكرين لحل مشاكل مصر المحروسة آنذاك، ولكن التاريخ جاء ورحل ولن يعود، رحل نابليون، ورحل بعده الإنجليز.

سيسافر ويكون بينهم غداً، في شوارع باريس.....

وعن حديثنا حول (لماذا وصفوا مصر) تناقشنا، تناولنا الحديث عن النيل والأهرامات ورسومات أبي الهول، وعن مشكلة مصر السابقة في تحنيط أجساد الأعيان وحفظ جميع أدواتهم، حتى يذهبوا إلى الفردوس، ولكن تبقى أرواح الفقراء المعدمين هائمة في الفضاء الخارجي، ليس لها مكان، لا في الفردوس أو في النار، ترفرف الروح الفقيرة حول أهله فقط، تركوا مسائلة الروح في يد آمون على حسب المعتقد، تتصرف في الأرواح كما تشاء.

ودع راشد الفندق وودع الموظف الذي هو أنا، وأخيراً ودع مصر.

الغريب في الأمر أنه عند المفاضلة بين تسجيل بيانات جواز السفر أو الرقم القومي اختار الجواز، وليس وحده من يفعل ذلك، هي حالات كثيرة تفضل الجواز، فحامل الجواز تكون لديه الأنا أعلى من حامل الرقم القومي، يخرج الجواز بكل فخر ليعبر عن معاني كثيرة، منها على سبيل المثال، ليقول للشخص الذي يسجل البيانات – معنوياً – في حوار داخلي صامت، تدركه الأعين: (الشخص الواقف أمامك لف ودار، مخزن للخبرات والأسرار، معه فوائد السفر السبع)، يخوض في الحديث الصامت ويستكمل ما بدأ: (في الحقيقة أنا متميز عن الآخرين الذين عجزوا عن السفر، لأسباب مالية أو صحية أو حتى سياسية)، يلخص شخصيته في كلمتين جواز سفر، حتى أن كلمة جواز تأتي من الفعل يجوز، أي يجوز له السفر إلى أي مكان في العالم، وكلما كثرت الفيز وتأشيرات الدخول كلما أكسب صاحبه الثقة، التي قد تنقلب للغرور.

صفحات الجواز الأولى تحمل تعليمات وإرشادات في حالة فقدانه، ثم صفحة بيانات المسافر: اسم المسافر.. صورته.. مهنته، وعن المهنة تبدأ الاختلافات الشخصية، دبلوم صنائع أو تجارة أو زراعة، ثانوية عامة، أو بدون مؤهل، فلاح أو عامل، وأغلب تلك المهن سافرت لبلدان عربية، المؤهلات العليا غالباً ما سافرت إلى بلدان عربية وأوربية وأمريكا، ولا يوجد تعميم كل الأمور خاضعة للنسبية.

المهن الموضوعة في الجواز أفضل حالاً من مهن الرقم القومي، حتى لو بنفس المسميات فحامل الدبلوم حامل رقم قومي فقط تختلف شخصيته عن حامل نفس المؤهل بجواز السفر، فالأول يرى حظه قليلاً، بينما الثاني يرى حظه أفضل، عندما أتاحت له الحياة السفر والعمل في بلاد تقدر الأشياء، تقدر الأوقات والأزمان، تقدر حبات العرق المتساقطة من كل جبين، صورة الجواز الشخصية ذات الخلفية الفاتحة غالباً تصاحبها ابتسامة على الشفتين، هي نصيحة المصور في أغلب الأحوال، وأحياناً أخرى أنت من تختار صنعها، فتكون الابتسامة

بمثابة شعار لتقول لأهل الدولة المسافر إليها: أنا شخص بشوش متسامح، لا أحمل لكم إلا كل الحب والود، لا أحبذ العنف ولا أقبله، أرفض كل المشاعر السلبية، أحمل طاقة إيجابية، حتى أكون بينكم، وقبل أن أستفيد أفيدكم، اقبلوني وأنا مستوفٍ لجميع الشروط الصحية والنفسية، أجريت كل الفحوصات الطبية فأظهرت أني سليم ولا أعاني من أية أمراض مستوطنة، و لا أحمل أية عدوى، لا فيروس سي أو إيدز، أنا صحيح البدن معافى النفس.

صورة تبدو عادية تحمل كل تلك الإشارات إلى البلد المستضيف.

يعطي الزبون الموظف الجواز لتسجيل البيانات، وبكل حرص يسحب الجواز ويضعه كما كان، حتى يسأل عنه ثانياً، يعدم الرقم القومي على مقصلة السفر، حتى لحظة تحول الرقم من شخصي إلى قومي، من موضوع على بطاقة ورقية إلى بلاستكية، كان تحولاً مثل لحظة تاريخية فارقة مدهشة مهمة، في تاريخ الأمة المصرية ثم تحولت إلى لحظة عادية جداً مع الزمن.

رقم قومي وتواريخ ميلاد، واختلاف شهور الميلاد، أرقام وأعداد يعرف أسرارها وخباياها من صنعها ووضعها.

****

العمل بالدرجة الثالثة لم يكن سهلاً بالمرة، فبين لحظة وأخرى إن لم تنتبه قد تجد نفسك بالسجن، يُزَج بك فيه بسبب شجار مع زبون أو حتى اتهام بالسرقة، وأنت في كل ذلك قد لا تجد ما تقوله للدفاع عن نفسك وعن خبرة السلكاوي في هذا الأمر التي جاءت طويلة جداً، بات ليالٍ في الحجز، رغم محبة الزبائن لنا إلا أن البعض منهم ينقلب شيئاً آخر في دقائق معدودة، ويبدأ بالتهديد والوعيد، إذا حدث شيئاً لا يرضيه.

لم يسلم الأمر من زبائن مرشدين نعرفهم من المظهر الخارجي، من عيون تفحص وتستقصي عن كل شيء حولها، تبات ليلتها وترحل بالصباح، يكتب في خانة المهنة وظائف مختلفة، طالب.. عامل.. دبلوم، تكون الرقابة صارمة للزبائن ولنا نحن، هل نسهل أو نساعد في أعمال تخل بالشرف؟ لم يكن الوضع بتلك الدقة الشديدة، تم تشديد الرقابة بعد إغلاق وتشميع فندق بالقرب منا.

فمرة من المرات، بعد منتصف الليل سمعت وسمع الشارع كله، أصوات سيارات شرطة، ثم حدثت حالة من الهرج والمرج، نظرت من نافذة غرفة خالية، بعدها بدقائق خرجوا ملفوفين بملاءات، رجال وسيدات، لم أستطع تدقيق النظر في الوجوه، إلا أني لاحظت وجود الأمين جابر وسط قوة الضبط، تم تغيير طقم المباحث بالكامل بعدها فتم تجديد أسمائهم بدفتر تسجيل الزبائن الخاص بالشرطة، كتب به في أول صفحة رقم هاتف رئيس مباحث القسم، رئيس مباحث أمن الدولة، وأخيراً رقم ضابط بالمخابرات العامة، وهذا لمن هم مطلوبين، ويهددون الأمن القومي للبلاد.

تأتي إلينا الزيارات بصفة مستمرة للإبلاغ عن الهاربين أو مطلوبين دوليين، جمهورية صغيرة داخل الجمهورية، مملكة صغيرة داخل مملكة أكبر، وكل شيء يبدأ بقوة وبعد فترة يهدأ ويخفت، هدأت الرقابة إلى أن تلاشت، بل وعاودا للفندق القريب منا نشاطه، صحيح تغيرت الإدارة وصاحبه، لكن كل شيء عاد إلى طبيعته السابقة، تعاقب أكثر من صاحب له، ولا نعرف ما السبب؟.. فسرنا ذلك على أنه (عتبة شؤم) على من يمتلكه، أو يموت أو يخسر تجارته، تصعد إلى مقدمة أفكاري أحاديث السلكاوي عن الحجز وعن البيات بالقسم، فلو أراد أحد الزبائن اتهامك بالباطل لاستطاع أن يفعل، مطبقاً القاعدة الذهبية التي تقول: (الزبون دائماً على حق).

وعلى ما تظهر الحقيقة تكون قد قضيت ليلة أو ليليتين بالحجز، الزبون دائماً قلق منك، وأنت قلق منه، فمن أين أنت تعرفه؟ وخصوصاً زبون أول مرة؟ ومن أين هو يعرفك وخصوصاً أول ليلة؟ حتى وإن جاء على سمعة أو إرشاد صديق له، لكن حذار من أول ليلة من الطرفين.

تأوي لديك النصابين والقتلة، ولا تعلم عن هويتهم الحقيقة شيئاً، غير المكتوب بالبطاقة الشخصية، دون ذلك ليس لديك صحيفة السوابق، جاءت تحذيرات في بدايات العمل، وقصص عن اكتشاف مطلوبين بعد رحليهم، يسألون عنهم فيجدونهم قد رحلوا، يحملون حقائب على كل الأشكال والأحجام: ماذا لو نملك تلك العيون الخارقة التي تكون بمثابة الأشعة تحت الحمراء للكشف عن المعادن والمفرقعات؟!.. في النهاية، نحن لا نملك حتى السلطة لتفتيشها، ومع ازدياد المشاكل كان الحل الذي وجده مالك الفندق لتجنب تلك الطبقة الثالثة، الصعود درجة بالفندق، درجة واحدة تكفي، فقرر إصدار أوامره بدهن الفندق وتغيير أشياء من أثاثه، إدخال بعض التعديلات في الديكور، ولأول مرة شراء مكيفات هواء لبعض الغرف، كنوع من الإحلال والتجديد لعل وعسى أن نصعد تلك الدرجة.

لجنة التصنيف تأتي في موعدها، والكل هنا مترقب لتزداد أسعار الغرف، لجنة تنقذنا من المشاكل ومن فئات بعينها تسكن بالفندق.

في صبيحة زيارة يوم اللجنة، لبسنا لأول مرة زى موحد (يوني فورم)، جاءت اللجنة المكونة من أربعة أفراد، قالوا جملتين أو ثلاثة على الأكثر منها:

– "مساحة المكان لا تسمح بتلك الدرجة، عذراً هي الثالثة على الأكثر، يكفي أنكم لستم تحت التصنيف".

استشاط صاحب الفندق غضباً، فبعد كل تلك المصاريف والنفقات لا شيء جديد، حاولت أنا مداعبته ببعض العبارات، محاولاً التخفيف عنه:

– "يا فندم نحن من قاطني الدرجة الثالثة أبدية".

ابتسم ابتسامة خفيفة ساخرة ومضى يفكر في حل لموضوع التصنيف، فهو الذي طالما يبحث عن التمجيد والتبجيل، والده الباشا مات منتحراً، قتل نفسه بمسدسه، مات اعتراضاً على قرارات ثورة يوليو بتأميم مصنعه للغزل والنسيج، ومحلج أقطان (دهب أبيض).

ظلت العقدة تراود الابن كعقدة متأصلة، يخاف الموت منتحراً، إذا شاءت الأقدار له ذلك، من كثرة ما ترددت الفكرة حتى أصبحت عادة فكرية، يتداولها بين أصدقائه ومعارفه ومعنا نحن، أخشى الموت منتحراً.

شاطره القدر، لم يخيب ظنه وماتت زوجته في سن صغير، مما أدى لزيادة دوافع الموت لديه، ولكنه ما زال يقاوم ولا يزال صامداً حتى الآن.

كون ما يشبه الإمبراطورية الصغيرة، فيجرى أمامه من يسبقه ويفتح باب السيارة، ثم باب المصعد حيث ينتظره أسعد الفرنساوي ويفتح باب المكتب، المكتب حيث إدارة ما تبقى من أملاك، يحمل لقب الدكتوارة في العلوم، خرج للمعاش مبكراً، ليتفرغ لإدارة الإمبراطورية، متوجاً نفسه قيصراً.

رحلات أجازاته يقضيها بالولايات المتحدة الأمريكية، ثلاث مرات في السنة، يسافر حيث أولاده الأطباء وأحفاده، ليعود ويلعن ويسب كل ما هو هنا، حتى الطقس الحار لم يسلم من لسانه السليط، لم يفكر مطلقاً بالإقامة الدائمة هناك، يضع دائماً في حسابه مبدأ تربى

عليه، أن ابن الباشا بك، في أمريكا يكون مواطناً عادياً ليس بباشا أو بك، صحيح سيقال له (سير) أو (بروفسير) ولكن بك لا، وهو الشيء الذي يعطل تدفق الأوامر والنواهي.

حجمه وشكله نظرات عينيه، تقول بما لا يدع مجالاً للشك أن البكوية فاتت هذا الرجل فهي خلقت لمثل هؤلاء، إخوته وأخواته مات البعض منهم، بينما الآخرين هاجروا منذ سبعينيات القرن الماضي، خارج البلاد إلى أوربا، كأخيه الطبيب الذي ببريطانيا، وأخته إلى فرنسا، وأخته الأخرى إلى النمسا.

يذهب هو إليهم أثناء عودته من زيارة الولايات المتحدة، وهم كالعادة يحاولون إقناعه بالبقاء، لم شمل الأخوة في أوربا، ولكن دون جدوى مطلقاً، الإمبراطورية التي وإن كانت محدودة، ولا تحقق الأرباح الطائلة، إلا أنها أفضل من بلاد لا تعرفه أو سمعت عنه.

يسكن بمصر الجديدة بشقة إيجار قديم، تاركاً العمارة حتى ينتفع بكل جنيه يتكسبه منها، يعيش بين أصدقاء عمره، من أساتذة جامعة ولواءات ومستشارين وسفراء بعضهم متقاعد وبعضهم ما زال بالخدمة، ويتبقى على خروجهم للمعاش بضع سنوات، يجلسون في جلساتهم المعتادة، يحكون عن فلانة التي كان يقف لها الشارع على قدم أثناء العبور، وعن فلان باشا صاحب العزب والأطيان، يحكون عن زمن مضى، وذكريات أصبحت تؤلم أكثر ما تسعد، لكنه ألم لذيذ، ألم يدفعهم نحو مزيد من حب الحياة والبقاء على قيدها؟!

رجل الأعمال أقوى من أي منصب أكاديمي وصل إليه، جلساته هو بالتحديد مع أصدقائه، لم تكن للثرثرة فقط وإضاعة الوقت، يحاول الاستفادة من خبرات محامين أصدقاء عند رفع القضايا، فالقضايا والمحاكم هي طريقته لفض المنازعات، ويا حظ وسعد المحامي الذي يكون زبون لديه، فهو تطبق عليه عبارة (الزبون الدائم)، يحتفظ في درج مكتبه بمفكرة مواعيد القضايا، ولا يخلو أسبوع من قضية أو قضيتين، معظمها خلافات مع سكان ومستأجري

المحال والمكاتب، أغلبها بالعمارة أو ما تبقى من أراضي بعد قانون الإصلاح الزراعي، معظم القضايا تركزت حول فكرة الطرد، وغيرها من القضايا التي تفرض نفسها عليه فرضاً.

كسب مرة قضية، التي اعتبرها من أهم القضايا التي رفعها، حيث لعب المحامى كل الحيل القانونية وكانت النتيجة إخلاء الطابق الثالث بالكامل، وتم عرض عدد من الاقتراحات عليه، تأجير الطابق كما كان بالسابق لمدة ثلاث سنوات، أو تأجيرها لشركة من الشركات الاستثمارية، إلى أن سمع أحد أصحاب الفنادق المنافسين لنا، قصة الطابق الخالي، فقرر عرض تأجير الطابق بالكامل، وتحويله لفندق.

فكر في المكسب المادي العائد عليه، وافق حتى لو نافس فندقه الأصلي، حتى لو أصبح بعدد غرف أكبر وبتخطيط أفضل، وهكذا يصير بالعمارة فندقين، وافق رغم كل ما سبق من أفكار.

بعد عدة شهور من التجهيز تم افتتاح الفندق الجديد، ومن أجل المنافسة، قلل أسعاره عنا، وقسم الغرف إلى مستويات، فى الحقيقة تأثرنا كثيراً من خبراته في الإدارة والتخطيط، ازداد عدد الوافدين الأجانب لديه، ممن يحملون الحقائب على ظهورهم ويجولون العالم، تهمهم المتعة ويدفعهم الشغف إلى التجديد دون النظر إلى مستوى مكان الإقامة أو الطعام أو الشراب، وصل أمر الفندق الجديد، أنه قد وضع نفسه على قائمة فنادق الدرجة الثالثة بمصر وعلى مستوى العالم، فعرف فندقه أكثر، ونظم رحلات لمناطق سياحية بالقاهرة وضواحيها، وحتى إلى الأقصر وأسوان، لقد أصبح في فترة وجيزة منارة يقصدها أهل الطبقة الوسطى، شباب وشابات وطلاب وطالبات، آسيويون، أفارقة، أمريكان، وبعض الأوربيين، شملت الدائرة لغات شتى وألوان بشرة مختلفة، من أقصى السواد إلى أقصى البياض، المسمى البياض الناصع،

اختلفوا في اللغات والألوان واتفقوا على الفندق الجديد، إنه أحد مصادر تحقيق الشغف بالمغامرة والمتعة والفائدة المشتركة.

تسلل إلى صاحب العمارة وفندقنا بعض الغيرة، من المستوى الذي آل إليه الفندق الجديد، وأنه لم تأت إليه الفكرة في تخطيط مثل هذا، مكتفياً بإدارة ما ورثه من أملاك.

وفى نهاية اليوم يعود لشقته، ثم تبدأ فكرة المسدس في اللمعان، يقاوم الفكرة بالهرب منها، بالنوم مرة، أو التحدث مع أحد أصدقائه عبر الهاتف، ولكن كل هذا يؤجل الفكرة فقط، ولا يمنعها نهائياً، يخرج المسدس ويتأمله ويتأمل الطلقات، ثم يتحسس جمجمته، ثم يضعه مكانه مقاوماً الفكرة، متغافلاً عن كل صورة ذهنية تأتي إليه، تصور والده ميتاً غارقاً في بحر من الدماء، على نفس المكتب ووسط أوراقه وأمواله ومدخراته.

****

يمثل لي سرحان بطل قصة الفلاح الفصيح (خن أنوب)، من أرسل رسائله لفرعون مصر، ولم يخشاه، بل وقال كل شكواه، فصيح يستطيع التعبير والحوار، تسمعه وكأنك بحصة مطالعة وقراءة مدرسية، شاعر وحكيم وفيلسوف ومغني، يحفظ معاني الأغنيات والأشعار، حكيم يصلح ليحكم قرية أو قبيلة، يتمثل في نوادره المستمرة، نوادر جحا، والذي لا تعرف له جنسية، يقولون إنه من العراق، يقولون من تركيا، يقولون جحا المصري، يقرأ الجريدة، يستمع لبرامج سياسية، كل يوم يأتي بتعبيرات لا تمثل وسطه على الإطلاق، كنت أندهش حتى اعتدت على ألفاظه مهما كانت تلك الألفاظ، كانت لا تنطبق سوى على سياسيين مخضرمين، أو اقتصاديين بارعين، أو أساتذة جامعات.

سرحان فيلسوف ومكتبة أمثال وحكم ومواعظ رغم وقوعه في أخطاء الدنيا العادية، لكنه لا يجهل أن الخطأ يولد الألم، اشتغل أكثر من عمل قبل مجيئه للفندق، كان آخرها طباخاً، واستمر بعمله هذا لفترة.

نوادر تلك الفترة من عمره كثيرة، من ضمنها مقارنة بين فرح شعبي لم يكمله للنهاية، وعمله لدى أثنين من المسنين، رجل وامرأته، اعتدل في جلسته، وتذكر حتى الطبول والمزامير بالفرح:

– "الضيوف كلها كانت ترقص، المطرب واقف على خشبة المسرح ومن حوله الراقصات اللاتي رقصن في أفراح كبار المنطقة، البعض منهن معروفات بالاسم، ويطلبهن بالاسم، آخر الفرح انقلب عركة حامية بين أهل العريس وأهل العروسة"، ثم استكمل بنبرة فيها ما يشبه الحسرة:

– "أفراحنا معارك وضرب وسحل، أوقات تنتهي بجنازة، بعدها بيوم ذهبت لعملي بمنزل أثنين من المسنين، رجل تخطى الثمانين وزوجته تصغره بثلاث سنوات، وكل يوم في الساعة التاسعة مساءً يبدأ موعد فك العضلات والرقص، لكن كان رقص إفرنجي، يقتربان لبعضهما لبعض، ثم تبدأ الحركة ببطء شديد جداً، وكما نصحهما الطبيب المعالج أن الرياضة والحركة تطيلان العمر، دائماً ما كان الرجل يقول: (الحركة بركة)، الأكل كله كان مسلوقاً، فمعظم أسنانهما قد سقطت، طقم أسنان الرجل بالتحديد لم يعد يصلح لأداء أية مهمة، ضاعت معظم الأحرف مثل الصاد والسين، و يردد عبارة: (أهم شيء الشحة) – يقصد الصحة طبعاً– ، أظل طول فترة العمل أرقبهما خشية ألا يموت أحدهما، ولا يعرف الطرف الآخر كيف يتصرف".

وعن السؤال:

– "كيف احتفظا بكل هذا الحب لكل تلك المدة"، فقال:

– "هي كل مدخراتي من الزمن العنيد، لن أنتفع بمالي وكل ما أملك، طالما أنها لم تكن معي، وبعد العشاء كانا يتعانقان ويتعكزان على جسديهما، يرقصان حتى يهلكا من الرقص، يتعبان ثم يستريحان ثم يخلدان إلى النوم"، ثم أكمل

– "أردت تجربة الرقص الإفرنجي عندما رجعت للبيت، أظن أنه أحد مقومات السعادة والحب لديهما، ولم لا، بتأكيد خبراتهما بالحياة، وأموالهما ومعرفتهما بأهل التخصص الطبي نصحهما بتجربة الرقص والتعانق، دخلت البيت وكالعادة، الكل نائم، فبعد صراعات الزوجة ، والشتائم الموزعة هنا وهناك، وضرب الأولاد، والذي قد يصل للكم والعض والبصق لكنهم صاروا نياماً، لم تنس أم العيال العشاء الموضوع في الثلاجة، ما عليّ سوى تسخينه، اقتربت منها مترددا، ولكن الفرصة سانحة للدرس الأول، ناديتها ثلاث مرات:

– "يا أم العيال.. يا أم العيال.. أم العيال"، استيقظت وهي بنصف عين وقالت جملة واحدة بنبرة المتعجبة:

– "ماذا تريد؟ عشاؤك بالثلاجة".

– "قومي نرقص"؟!.... نظرت والغضب مرسوم في وجهها، شيطان يريد أن يبتلعك:

– "أنت مجنون وناقص يا رجل، بكل تأكيد مجنون.. ارقص؟ أقوم أرقصلك؟ هل أنا جارية وقت ما تطلب أي شيء منها تنفذه"؟

أجبتها بكل برود ولا أعرف ما سبب البرود الذي اعتراني في تلك الدقائق المثيرة في حياتي الزوجية، يضحك ساخراً من نفسه ليلة عجيبة العجب، المهم أكملت الحديث:

– "لن ترقصين وحدك، سنرقص سوياً"، ثم سحبت ذراعها كي تنهض من على السرير، ومثلت لها ما سنفعله معاً، توسلت إليها وفكرت في حيلة لإقناعها، أن طريقة الرقص الإفرنجي طريقة سهلة وبسيطة للسعادة فقالت:

– "أنا متعبة".

– "لن أتركك أبداً، الموضوع كله خمسة دقائق".

وبعدها بدقيقة يا حرام بدأت ترقص معي مرغمة، ربما حتى أتركها تستكمل نومها فيما بعد.

شغلت الراديو على إذاعة الموسيقي كما عرفت منهما، بدأ الراديو وكأنه اتفق معنا بموسيقى هادئة، تصلح للرقص، جذبتها نحوي وتحركنا، تدوس على قدمي، وأدوس على قدمها، صرختْ وصرختُ أنا، ولكننا أكملنا، وبعد دقائق تعلمنا الرقص تلقائياً، رقصنا وتبدلت الموسيقى مرة، ومر خمس دقائق وعشر دقائق وربع ساعة تقريباً، اقتربنا من بعضنا لبعض أكثر، ثم أكملت بقية الوقت نائمة على كتفي، لم ندرك كم من الوقت قد مر؟.. ولم نعي إلا على صوت صراخ طفل من الأطفال، نظرت لي ونظرت لها وضحكنا، ونمنا نوماً عميقاً، ومنذ تلك الليلة أدركنا أن أنواع الرقص كثيرة، أهمهم جميعاً الرقص الإفرنجي.

سرحان هو الفلاح الذي اعتزل الزراعة، اعتزل الدود وأبو قردان، حتى لو كان هذا الطائر صديقه في يوم ما، اعتزله واعتزل البلبل والكروان، اعتزل كل بيئة الفلاحة وأدواتها، اعتزل الفأس كأول أدوات تلك البيئة، استخدم أدوات الطهي بعدما كان صانعاً لوقود الطهي من طعام، أنكر الأرض وأنكر تعاليمها، عندما أراد استكمال تعليمه بعد المدرسة، كانت الأرض هي المدرسة الكبرى، المدرسة التي تعطي دون مقابل، خاض فيها أول تجاربه مع الحياة العملية، تعلم مثلاً معنى الموت ومعنى الحياة، معنى البذرة ومعنى الإنبات،كان على ثقة بأنه

مثل النبات في الميلاد ومثل البذور، وبعد الزواج، حياته لم تختلف كثيراً عن الأرض في فكرة الإخصاب والبذر.

سعادته في الأخضر عندما يزداد اخضراراً، مع تدفق الماء، يراها تضحك وتنتشي، دروسه منها كانت أكثر من دروس طالب بالمرحلة الابتدائية، تعلم معنى الخل الوفي، المحب المعطاء، فكلما تعطي تأخذ، تظل دروس المدرسة تبحث عن تطبيق، إذ تلخص منهج القراءة في الشر والخير، وكيف ينتصر الخير على الشر، ففيها ينتصر الخير ويخرج النبات من عمق طين أصم أبكم، فقد رأى كل ذلك عملياً، رغم كل الدروس السابقة والمحاضرات الطبيعية، تركها وخان عهد العلم، قدمت أجود ما لديها من علم، حجته في ذلك كانت ضعيفة، حجج من نوع البنطال والقميص كما يظهران بالتلفاز، لم يخلقا فقط للممثل الفلاني أو الوزير العلاني فقط، فقد مر زمن الجلباب دون عودة.

أحياناً لا يعرف نفسه بعدما ارتدى ما أراد، وخلع ثوب الأرض، للضرورة أحكام كما قال، دخلت الأرض منازعات، عن من يزرع ومن يحصد، واستمر الجدل إلى أن جاءت فكرة التجريف، وضاع الطين الذي ربى أجيالاً، فمع كل فيضان للنيل يغمر الطمي الأرض، وكل ذلك إلى زوال، في أيام معدودة ملايين ملايين السنين، تختصر في قرارات للبشر، والآلات تحفر وتأكلها.

رحل سرحان وأسرته: والده وأمه وإخوته وعن الأسرة وعن والده قال:

– "الله يرحمه ابويا لعب مع السادات وهو في صغره".

– "السادات من"؟

– "الرئيس الراحل محمد أنور السادات، نحن من ميت أبو الكوم، بلد الرئيس، ومرة سلمت عليه شخصياً وتذكر أبي، كان يسير دون حراسة في بلدنا".

– "عم سرحان، الكذب لا ينجي، اكذب كذبة معقولة"؟

– "اسكت. أنا لا أكذب، ولماذا أكذب؟ هو قبل الرئاسة كان شخصاً عادياً، أكمل تعليمه، بينما ظروف جدي لم تسمح لأبي باستكمال تعليمه، وأنا حصلت على الابتدائية، وانتقلت للأرض".

الشخص العادي من يرى سرحان لأول مرة، يرى فيه الفلاح.. في نظراته.. في حركاته، يرى فيه فطنة وتلقائية الأرض؛ فالأرض تملك ذاكرة مثلها مثل الإنسان، تعرف من أعطاها ومن أخذ دون رد.

عندما قررت الأسرة السكن لم يبتعدوا كثيراً عن الريف، سكنوا في القناطر، يأتي إلى ورديته، ثم يغير الجلباب للقميص والبنطال بتكشيرة غريبة، وبعد الوردية يرتدي الجلباب، فيسترد معه ما تبقى، وما زال يسكنه من الطمي والفيضان والوفرة، الآن تغير قليلاً حتى يساير الحضر العجيب.

يوم وفاة والده، وجدوا جثته على أرض إلى جوار النيل، بعد وأن ظلوا ليلة كاملة يبحثون عنه إلى أن دلهم شخص عن جثة تشبه مواصفات والده، ظنوا أنه سبح وغرق وطرحه النيل على شاطئه، ولكنهم لم يجدوا أي دليل على الغرق، مات ميتة طبيعية.

أصاب سرحان نوع من التأكد بأنه قد مات بالحسرة، بعد ما كان يتبادل أدوار العطاء والأخذ مع الأرض، صار يأخذ فقط ولا يريد أن يعطي شيئاً إلا الفتات، واليوم الذي صار فيه سرحان جداً كان أكثر أيامه على الأرض سعادة، جال بالمولود وطاف وبعد أن أكمل الطفل

عامه الخامس اصطحبه إلى بلدهم ميت أبو الكوم وطاف به الأرض، وأشار إليه بإصبعه، تكلم حتى لو لم يفهم الطفل ما قال، لكنه كان على ثقة أنه سيفهم في يوم ما، فالأخضر يفعل في نفسه، ولديه القدرة على الفعل وعلى الأثر الطيب ولو بعد حين، وأن الشمس لن تقف عاجزة تاركة أبناءها في حيرة من أمرهم، بل تشاطرهم بالضوء، وتنتظرهم حتى يفهموا معانيها ومعنى الضوء، في الحقيقة هي شمس أصيلة لا تنس أبداً من تحمل مشقة العمل أثناء وجودها، لا تنس أبداً وهى ذات الذاكرة النارية، لا تحرق هؤلاء من كانوا على شاكلة سرحان وأولادهم وأحفادهم ، وكل من اقتنع بها وبمبادئها.....

الجزء الرابع

المدرسة

أستاذ (شبل)، مدير حسابات الدكتور صاحب العمارة.. رجل سبعيني، جاء النعي عنه بجريدة الأهرام اليومية، على حساب الدكتور شخصياً، أستاذ شبل دائماً ما كان يبدو عليه الاهتمام بالتفاصيل، كان لم يزل يعتني بمظهره حتى في أيامه الأخيرة، اعتني بنفسه اعتناء رجل أربعيني، وقف العمر في تصوراته عن نفسه عند الأربعين، وما تلا ذلك من سنوات لم يكن يحسبها، إلا سنوات زادته أناقةً وتألقاً.

مكتبه بالطابق الأول بالعمارة، ظل مصاحباً للدكتور طيلة أربعين عاماً، عرف كل صغيرة وكبيرة عن حساباته، شبل تعامل معاملة الأسود في مواقع كثيرة مع الضرائب، من خلال ملفات الدكتور المالية، كان يأتي مرة في نهاية كل شهر لمراجعة وفحص الزبائن وحساباتها التي تم تسجيلها.

تمكن شبل من صناعة نظريات لا تعرف عنها وزارة المالية شيئاً، استطاع التخلص من أي مأزق ضريبي أو أزمة مالية، أتصور أنه لو كان يريد إقناع شخص ما أن واحداً زائد واحد لا يساوي اثنين لاستطاع، حور النظريات وطوع استخدامها لخدمة مصلحته.

شبل ومعه محامي الدكتور يعتبران زراعي الدكتور – الأيمن والأيسر –، كل ذراع فيهما يعلم على وجه الدقة، كيف يستخدم إمكانياته بتمكن عالٍ، في بداية مجيء للمكان، أقبل إليّ ، وأنا لا أعرفه فسأل:

– "أنت جديد هنا"؟

– "نعم".

– "متى سترحل"؟

– "أرحل...."؟!

– "ترحل مثلهم، هل تعلم كم شخص جلس هنا مكانك؟.. لن أبالغ إذا قلت عشرين شخصاً، منذ افتتاح الفندق للعمل الرسمي".

– "عشرون"؟!

– "ربما أكثر، لا أتذكر، أذكر بعضاً منهم والبعض الآخر لا أريد أنا أو أي أحد كان بالفندق تذكرهم"

ثم قال بعضاً من تلك الأسماء مما حفظ:

– "هبة.. أيمن.. سعاد.. وجدي.. وحيد.. سما، البنات لا يحتملن ظرف ولطف الزبائن، تفهمني بالطبع؟ أما معظم الشباب رحلوا إلى أماكن أفضل ولذلك كان سؤالي: متى سترحل"؟

– "في علم الغيب".

ضحك ضحكة صفراء ثم عرّف نفسه لي:

– "أنا أستاذ شبل، مدير حسابات الدكتور"، ثم شرع في قراءة ملف الحسابات والأرقام، دخل مع الآلة الحاسبة في معادلات رياضية حسابية، الجمع.. الطرح.. الضرب.. القسمة.

آمن بنظرية أن الخانة وحدة بناء الجدول الحسابي، لو فسدت الخانة يفسد الجدول، فيفسد الدفتر، وبالتالي تفسد الحسبة بالكامل، ممتع بموهبة الأرقام، يفهم قيمة الصفر، وقيمة زيادة الصفر إلى جوار العدد الصحيح، يردد عبارة أعتبرها سباب إذا نعت بها إنسان: (أنت صفر على الشمال)، يستخدم الأرقام حتى في السب.....؟!

القيمة لديه في قدرة حفظ العقل الأرقام، وقدرة تحليلها واستخدامها في الموضع الصحيح، يتفاءل برقم (6)، فهو مواليد سنة (36) شهر (6)، تخرج عام (56)، افتتح أول مكتب خاص به، بعد عشرة أعوام من التجول والعمل بمكاتب الغير وشركات الآخرين، ففي عام (66)، عام مكتبه الأول الذي تلاه مكاتب أخرى، وظل مكتبه الأول الكائن بالطابق الأول بالعمارة، هو وجه السعد.

شبل ظل أستاذاً ومعلماً، خرج وتتلمذ تحت يده عشرات المحاسبين، رفض منصب نقيب المحاسبين أكثر من مرة، فهو في حد ذاته نقيب لمن عرفوه، اهتم لمشاكلهم.. سعى لحل خلافاتهم.. قدم المساعدات المالية لأسر المتوفين ممن عرفهم عند الحاجة.

جاء يوم وفاة شبل بالأمس يوماً أسوداً في تاريخ صاحب العمارة الذي أمر بإغلاق الفندق لمدة ثلاثة أيام، وتم توزيع الزبائن على فنادق قريبة، حداد شديد، أرغمنا على المشاركة في تشيع الجثمان وسط عشرات من تلاميذه، نعاه بالأهرام في عمود طويل وقال عنه: الأخ الصديق.

فاجعة موته تحمل شقين: شق رفيق درب، وشق مالي، فلم يدع شبل ملفات صاحبه لمحاسب يعمل لديه، بل اهتم بنفسه بكل التفاصيل، من يا ترى سيحل محل شبل...؟

معاملة شبل مع صاحبه كانت معاملة وزراء عصور الخلافة، كالمستشار الذي يظل إلى جوار الخليفة في بلاط الخلافة، وعبارة ما رأيك؟ أو جملة دبر الأمر، حتى لو تم إعلان القرار باسمه أو اسم صديقه، لكن شبل هو الحاضر الغائب في معظم قراراته.

خاضا معاً معاركاً ضد الضرائب ووزارة المالية، خرجوا من معظمها منتصرَين، ما خسراه مسبقاً كسباه فيما بعد، مع مرور الأيام، رحل شبل الصديق والمعلم وصاحب المدرسة.

أحد تلاميذ شبل أكمل المسيرة، طور بعض نظريات شبل الخاصة بالضريبة المحاسبية، طور استخدام العلم في حل المشكلات، العلم الذي تطور من القرن العشرين إلى القرن الحادي والعشرين ، هو تلميذ نجيب، خريج مدرسة شبل.

****

لا يوجد في الملفات الرسمية الحكومية مصطلح (بنسيون) أو (لوكاندة)، التصنيفات الثلاث تصنف الفنادق إلى درجة أولى وثانية وثالثة، شعبي وتحت التصنيف.

انقسم فندقنا إلى شقتين: شقة كبيرة وشقة صغيرة، وبعدما تم هدم الحائط الذي كان يفصلهما عن بعض منذ وأن تقرر تحويلهما إلى فندق، الشقة الكبيرة مطلة على الشارع العمومي، احتوت على أربع غرف وحمام، وغرفة واحدة فقط بها حمام داخلي، أما بقية الغرف فلها حمام مشترك، وهذا ينزع عنا درجة من درجات التصنيف، وكوننا بالدرجة الثالثة، أفضل من تحت التصنيف، احتوت أيضاً على مطبخ صغير به دولاب، يجمع أدوات الفندق من مفارش و ملاءات، بوتاجاز صغير لأغراض الشاي والقهوة، على كل الأحوال غرفها أوسع نسبياً من الشقة الصغرى، المطلة على شارع جانبي ومدرسة ابتدائي، ولا تختلف عن الكبرى في مسألة الحمام، حيث أنها نفس التصميم بالضبط.

تمر أوقات تكون إحدى الشقتين خالية تماماً من أي زبون، وتمر أوقات أصعب يكون الفندق بالكامل خالٍ من أي زبون، لكننا نطلق بدلاً من كلمة الشقة الكبرى والصغرى، نطلق مصطلح الجناح الأيمن والجناح الأيسر.

في فترات تواجد ليلى، تكون هي الفترات الوحيدة التي لا يخلو الفندق فيها، تمر أوقات الأعياد غالباً بدون أي زبائن، نعتبرها فترة راحة بسيطة.

مرت أيام كنا نكون أنا وليلى وحدنا بالفندق، ورغم أن جميع الظروف مهيأة، إلا أنه ما زالت الرغبة عاجزة عن فهمنا معاً.

جميع العاملين كانوا يشكون أن بينا علاقة جنسية، والصراحة لم نحاول أبداً إبعاد هذا الشك عنا، أو حاولنا تصحيح المفهوم حتى إنه في الفترات الليلية المتأخرة، يدخل مجدي يفتش، رغم ذلك مرت ليالي بلا تفتيش أو رقابة، وجميع الأسرة خالية، لكن مع فقد الرغبة، نفتقد اكتمال القدرة، وقد تحضر الرغبة والقدرة في يوم ما.

سريرها القابع بالغرفة لولا أنه مصنوع من الخشب، لقال: هيا ماذا تنتظران؟! مغفلان، غبيان، أحمقان، لا تعرفا معنى المرتبة القطنية والراحة.

كل الهواجس تدور في وقت خلو الفندق، ولكنهما سيحضران الرغبة والقدرة مع الوقت المناسب، ولن يعترض طريقهما أي حسابات أخرى مهما كانت.

بعد فترة من انقطاع الأحلام عادت ليلى في حلم، جاءت تتدلى من سقف الحجرة، وعلى الحائط التصقت به، لم تنطق حرفاً واحداً، ثم فتحت الباب وخرجت، ولم أستطع الخروج خلفها، وأنا مقيد بالسرير، ممسك القدم واليد، استيقظت على رسالتها بالهاتف، تخبرني أنها ستأتي بعد الغد.

****

في معاد الوردية ذهبت للفندق وبعد أن سلم زميلي لي كل شيء، جاء من غرفة ليلى المعتادة صوت، ظننت أنها قدمت موعد مجيئها، ولكن الصوت لم يكن صوتاً عادياً، صوت موسيقى، شخص ما يعزف على آلة موسيقية، وبالتحديد يعزف على الكمان، عزفه عذب ورائع، عزف مقطوعات غربية وشرقية، انتهى من العزف في الثالثة صباحاً تقريباً.

في صباح اليوم التالي وصلتْ للفندق، وصلت وعينها على غرفتها التي لم تغيرها منذ أن جاءت إلينا، ولكنها في تلك المرة كانت مشغولة بالفنان، قبلت على مضض غرفة بديلة، إلى حين التفاوض معه، ربما يتخلى عن الغرفة أو يرحل، جاءت وردية الليل وتقابلت معها وبعد وقت قليل بدأت ألحان أستاذ (سعيد) تصدح من غرفته، معلنة بداية الليل، لم يشتكِ أي زبون من صوت موسيقاه، رغم أنه مسموع بشدة.

أمر غريب، لأن بعضهم كان يشتكي إذا ما ارتفع صوت التلفاز في غرفة مجاورة فقط، ولكن مع سعيد كان الوضع مختلفاً، فعذوبة العزف أسكتت الجميع، نقب عن الجزء الفني في المخيلة المصرية، لعب على وتر الشجن، فجأة توقف العزف وخرج للصالة، ألقى علينا التحية، ثم جلس إلى جوارنا، أخرج سيجارة، وانتقلت عدوى السيجارة إلى ليلى فأخرجت سيجارة ، بادرت أنا بالإشادة بما عزفه، يبتسم ويشكرني، أما هي ما زالت تتأمله مأخوذة به، ثم دخلت غرفتها، استأنف أنا الحوار معه عن أين تعلم الموسيقى؟ وهل يستطيع قراءة النوتة الموسيقية؟ وهو يجيب بصدر رحب دون أي ضجر، تعود ليلى لمجلسنا من جديد، وتغيرت هيئتها واضعه بعض الماكياج على الخد، وطلاء شفاه وملمع وكريم أساس، وجدتها تفتح معه موضوع الغرفة وتستأذن منه في تبديل الغرفة، شرحت له مدى تعلقها بها، قبل سعيد المبادلة والمقايضة أيضاً، بما أنها وضعت الثقة في الأنثى ليلى.

ليلي وبعد وصولها بيوم واحد، وهى التي لا تضيع وقتها أبداً، البداية لقاء مع عبده ثم تلا ذلك لقاء مع مسعد، ثم لقاء مع شخص جديد، وعودة للدائرة المغلقة.

الصديق في تلك المرة مختلف عن السابقين له بمصر، يعمل بجهات سيادية عليا، تعرفت به بمقهى بالمهندسين، لم يكن وحده بل كانوا شلة، تكونت من رجلين وامرأتين، الرجال لهم نفس ميزة صديقها، يعملون بجهات سيادية عليا، رفضت رفضاً تاماً الإفصاح عن أي تفاصيل أو عن اسمه حتى، ولكنها وصفت هيئته، فارع الطول ومفتول العضلات، رجل تم اختياره بعناية فائقة من الجهة التي يعمل بها، شعرت بالأمان ولم تعد تخشى الحملات والاقتحامات، لأول مرة وهي بشقة خارجية بمصر، تكون مطمئنة إلى هذا الحد.

سربت بعض المعلومات عن الشلة الجديدة، مواصفات أعضائها بدأت بالنساء، المرأة الأولى، بدينة الجسد لديها ابنة من زوج سابق، تكره ليلى كرهاً شديداً منذ أول ساعة قضتها معهم، لسانها يقطر شتائم بالجملة، تسب وتلعن وتندب، تنام مع صاحبها، هذا هو دورها في الشلة، و هو الدور الذي لا يختلف عن دورهن، هي واحدة مثلهن ارتضين به.

المرأة الثانية عكس الأولى، نحيفة لم تتزوج من قبل، تحب الاستحواذ والتملك، أحبت ليلى، وأحبت سقطاتها في اللغة العامية المصرية، تقلد لهجة ليلى، لهجة الشمال الإفريقي بإتقان شديد، تذكر دائما أمامها صديقة عرفتها من نفس المقهى، تعلمت منها تلك اللهجة واللكنة.

الشلة نفسها كانوا يقضون ليالي يتضاحكون على كلمة عامية مصرية، قالتها ليلى بالخطأ أو كلمة قالوها هم ولم تفهمها هي، لم ترتح ليلى للمصريات مطلقاً، فسرت شعورهن من تعاملاتها معهن على أنهن ينظرن إليها على أساس أنها قد أخذت دورهن بمصر، على أساس أن مصر تحتمل المزيد، لكن هي أول امرأة مصرية تشعر معها بالارتياح وتبدأ صداقتهما وتسألها

عن معلومات تتعلق بالصديق الجديد فتخبرها بكل بساطة وتلقائية، رغم تشديده في إخفاء بعض المعلومات الشخصية عن نفسه، لحساسية المنصب الذي يتولاه.

الرجلان الآخران لم يختلفا كثيراً عن صديقهما، بنفس الغموض ونفس المعاملة، لم تعرف عنهما معلومات إلا الأسماء، وإن كانت تلك الأسماء حقيقية، تعود من جولاتها ثملة، تغني بعض الأهازيج، تجدني أمامها، تطبع قبلة على خدي وتقول جملة واحدة: (تصبح على خير).

لا شك أن هناك تغييراً ما قد طرأ عليها، لم تعد تحكي باستفاضة، ربما أنا من أصبح مستهلكاً، تبقى خارج الفندق لأوقات أطول من المرات السابقة، الأغرب أنني حالياً أشعر بالشتاء، أكثر من أي شتاء مضى لي بالفندق، فقبل ذلك كنا نصنع فصلاً مخصوص بنا، لا يعرف حراً أو برداً، فصلاً نسكن فيه بمفردنا، من أهم خصائصه التوحد.

نشأت في أيام قليلة صداقة بينها وبين سعيد الذي ما زال يقيم بالفندق، وبهذا أصبح لدينا طرف ثالث فى الموضوع.

صحيح أنه مبتور المعلومات عنها، ولا توجد معلومة واحدة لديه مكتملة، هو يعرف أنها ليست مصرية، يعرف أنها مدام، كلها معلومات سطحية جداً.

أسبابه بالبقاء بالفندق ليست مقنعة إلى جانب نفقاته الكثيرة، ينفق في أشياء قد تبدو تافهة، تكوين سعيد الجسماني ينم عن شخصية كسولة، وجهه ممتلئ بعض الشيء، يتلعثم في الكلام إذا أطال الحديث، ثقة محدودة في النفس يستردها في حالة واحدة فقط ألا وهي ساعة العزف وخصوصاً (بحيرة البجعة لتشيكوفسكي)، براعته في عزفها تجعلنا أنا وليلى نصفق له فور الانتهاء، له بجعاته التي تخصه، ترقصن له وحده، له مسرحه اللاتي تقفن فوقه أمامه.

بدأت المعرفة عنه تزداد مع مرور الوقت، هو طالب فاشل كما قال، لم يكمل تعليمه بكلية التربية الموسيقية، ولكنه لم يخرج منها خالي الوفاض، بل خرج بقراءة النوتة وتعلم المدارس الموسيقية، أمضى بالفرقة الثالثة ثلاث سنوات ثم فُصِل، خرج ببعض الصداقات من الفاشلين أمثاله، حتى إنه دعا أحدهم للغناء والعزف بالعود في أمسية لم يشهد لها الفندق مثيلاً.

شرع صديقه بالغناء، غنى أغاني تراثية، غنى وغنى الجميع معه ليجتمع قاطني الفندق بين الغناء والتصفيق، مر الوقت وبعد كل وصلة غنائية نصفق له حتى أن أهل العمارة سألوا من أين يأتي هذا الغناء؟!

تحدث أمامنا بعد الانتهاء عن بحثه عن فرصة ظهور، جمع أهل الفندق ما فيه النصيب مكافأة له، حاولنا إعطاءه إياها لكنه رفض رفضاً حاسماً قاطعاً.

****

بعد تلك الأمسية بأيام، رحل سعيد عن الفندق، ووعد بالعودة، ودعته هي حتى مكان السفر، وفي طريقها للعودة للفندق ذهبت للرفقاء الجدد، فلم تجد أحداً بالشقة، جميعهم رحلوا وأغلقوا هواتفهم.

وفي أثناء عودتها للفندق، مرت على محل واشترت شامبانيا مصري، ظلت تشرب وتشرب ثم ارتمت في أحضاني، لم أجد مفراً الآن من السرير الذي طالما انتظرنا في السابق، ذهبنا في غفلة من كل قاطني الفندق، نمت إلى جوارها وتم الشيء الحتمي، اكتشفت أنني أمام جسد خاض حروباً طويلة وقصيرة الأمد، انتصر وانهزم، أنا عن نفسي لا أعتبر نفسي قائداً، بل مجرد جندي ينفذ أوامر قائده، العارف بأساليب الحرب والقتال، العارف بالغزو وطرقه، الفاهم متى يهجم ومتى يقفز ومتى يستكين ومتى يستقر.

منهج جديد يدعى (جغرافيا الجسد)، احتوى على تضاريس مبسطة وسهلة، وأخرى شاهقة الارتفاع، تحتاج جهداً أكبر للوصول إليها، صنعت خريطة لنفسها، كانت هي مفتاح الخريطة، لم تكن الخريطة التي صنعتها تعطي مفتاحها للجميع، حتى من ظنوا أنهم وجدوا المفتاح، كانوا واهمين، المفتاح تهبه هي لمن تشاء.

بعد وأن حصلت النشوة وسرت في جسدي وجسدها، استغرق الأمر حوالي ربع ساعة انقسم كل خمس دقائق بها على حدة، الخمس الدقائق الأولى جاءت كنوع من تعارف الأجساد على بعضها، لتعرف أين مواطن القوة وأين مواطن الضعف، تبدأ من هنا من الضعف، أما الخمس دقائق التالية بعد معرفة مواطن الضعف، تعمل كل الحواس لإثارتها، بكل ما أوتيت من قوة حتى يتم تخدير الحواس بمنوم اللذة، ثم جاءت الخمس دقائق الأخيرة كدقائق العودة، عودة كل الأمور إلى نقطة الصفر حيث بدأت من القمة، لتسقط لقاع النشوة، وتخرج الأنا منها، كل تلك اللا مرافعات التي صعدتها، تنزلها الآن سريعاً.

مرت الأمور على نحو جعلني أكتب بعرق أناملي عليها، عزفتها جملة لحنية كلاسيكية، الدقائق التالية لما حدث مرت بطيئة، وكأن الوقت توقف أو أوشك على الانتهاء، خرجت من غرفتها، أكملت الوردية عازفاً عن ممارسة أي حركة على كرسي الاستقبال، صامتاً متأملاً ما قد صار في الصباح حتى تبديل الوردية....

****

انتقلت الوردية من ليلية إلى صباحية، تلك التي يتخللها تواجد سرحان وابنة مدام فوزية، سرحان هو الشيء الوحيد المسلي في تلك الوردية، نظراً لتواجد معظم الزبائن بالخارج لقضاء مصالحهم في فترة الصباح والظهيرة تلك التي أتوا من أجلها إلى القاهرة.

يغني سرحان وهو يحب الغناء، ومزاجه مختلف قليلاً عن ما هو سائد، حتى وسط أبناء جيله، يغني بعضاً من الأغاني التراثية، يردد أغاني المنشدين والمداحين والسير الشعبية، من (أبي زيد الهلالي).. (شفيقة ومتولي).. (حسن ونعيمة).. لا يستهويه طرب أم كلثوم أو عبد الحليم، يستهويه الغناء الملحمي الذي يجمع ما بين الأسطورة والحقيقة، والتصديق وعدم التصديق، حتى إنه يبالغ في تشبيه نفسه بأبي زيد الهلالي، في حكاية وسيرة بني هلال، ولا أعلم ما وجه الشبه أو ما صلته بحكايته، في الستينات حيث الحقبة التي ولد بها في طفولته، صنع سيوفاً خشبية مع زملائه ورفقائه، ولم يقبل عندها إلا بدور الهلالي ذات نفسه، هو أواخر أحلام الفارس والفروسية لديه، رغم أنه أبعد ما يكون عنه، ما زال محتفظاً بالسيف الخشبي، وكم من مرة طلبه ابنه الأصغر، وكانت أجابته دائما ما تأتي بالرفض:

– "لما أموت ابقى العب به، طالما أنا حي، لا".

على المستوى النسائي، جاءت الست (خضرة الشريفة)، أحب الشخصيات النسائية إلى قلبه، ثم تأتي في المرتبة الثانية (نعيمة)، أما (شفيقة) يختلط كلامه عنها ما بين التعاطف وما بين تأيد (متولي) فيما فعله بها بالقتل....

كل صباح ما عدا الجمعة يأتي، ثم يستبدل ملابسه بملامح الضجر والسخط والملل، ولا يخرج من تلك الحالة إلا بعد كوب شاي وسيجارة، أوقاته تمر مع أغاني تم تأليفها لكل آلة يستعملها، للمكانس.. لبراد الشادي.. للبوتاجاز.. للمناشف القطنية التي تستخدم للأرضيات، حسه حلو، حس يحتاج فقط إلى قليل من الينسون أو الكمون، ليفك ما تعلق بالأحبال الصوتية من شوائب، بالفعل أحيانا تجده ترك الشاي وصنع لنفسه حلبة حصى، حتى يتمزج بالغناء، وتمر أوقاته خفيفة دون توتر أو ضغوط عصبية، على الرابعة عصراً، يكرر نفس السيناريو

ولكن بطريقة عكسية، ليرتدي الجلباب ويرحل، يرحل تاركاً خلفه بعض البهجة في نفوس من وصل إليهم غناؤه المبهج، ماذا لو عمل هذا الرجل المدعو سرحان، مطرباً أو منشداً؟!

سرحان كما عرفت، ابن بار للشمس، ابن من المخلصين لها، حتى أنها طبعت كل صفاتها عليه فترى فيه الضوء والحرارة والدفء، وفى لفحة الشمس يؤكد المظهر في الشروق اليومي مع أم لو كان يعرف طريق الرضاعة منها لفعل، الروح الشمسية تتملكه في الصباح، فتصيبه بالنشاط، وتختفي مع أجواء الغروب فيتوارى مثلها خلف الأفق البعيد.

تبدأ جولة الصباح مع سرحان، بفتح ثلاجة الفندق التي تقبع بوسط الصالة، وهى الوحيدة به، في الصيف تبدو وكأنها باب النجاة الوحيد لقاطني الفندق، وحتى العاملين لما يوضع بها من زجاجات مياه، تصير باردة أو مثلجة فتروي ظمأ الصيف، تخصص سرحان في كيفية الاستيلاء على محتوياتها من مشتريات الزبائن.

ذات مرة سرق أربع قطع جاتوه دفعة واحدة، واحدة له وثلاثة تقسم على بقية أفراد أسرته، عندما تم اكتشاف السرقة هدد الرجل بإبلاغ الشرطة، ثم هدأ وقال: أبلغ الشرطة عن أربع قطع جاتوه معقولة؟!.. سامح الله من سرق، وأكل بالهنا والشفاء، ولكنه لم يكرر الزيارة إلينا ثانية، جولاته إلى الثلاجة لم تقتصر على الأشياء الخفيفة، بل كان يطمع دائماً فيما هو أثمن، قطع اللحوم الحمراء والبيضاء، ظل على ذكائه بأن يكون اللص الشاطر الناصح، بسرقات لا تودي به إلى السجن، صحيح تسببت بعض شكوى الزبائن لطرده مرتين، ثم يعود صاحب الفندق ويصفح عنه معتبراً أن الحاجة تزل صاحبها، يعود بوعد عدم التكرار، يبقى الوعد كلاماً في الهواء قد قيل، ومع أول وسوسة يأخذ ما لذ وطاب من فواكهه ولحوم وجاتوهات، حتى إنه استولى على زبادي مستورد من الخارج، لغرض تجريب طعمه.

حلول الصيف لا يحتمل أن يكون الشخص في وردية صباحية، فالليل ألطف بكثير، ولذلك تم الرجوع لوردية الليل، حيث حوارات ليلى، وزبائن آخر الليل من جديد....

****

تمتلئ فنادق الدرجة الثالثة عن آخرها تقريباً في فصل الصيف، فنكون نحن مرسى للذاهبين من الصعيد إلى الإسكندرية، والعائدين منها، فالأمر لا يخلو من زيارة للعاصمة يوم أو يومين لتكتمل فكرة الرحلة، حيث يؤجل معظم الزبائن سفرهم ومصالحهم إلى الصيف، فمنها فسحة ومنها قضاء للحاجات.

مع الشمس الحارة، يبقى الهروب من الأربعين درجة مئوية وأحياناً الخمسة وأربعين درجة، هو الحل الوحيد، على الأقل أسبوع أو عشرة أيام، مع نسمات الإسكندرية المنعشة، مع أمواجها التي تحرك الهواء وتبعثه للمصطفين.

العائدون من هناك، تصبغهم الشمس بلونها، تجفف البشرة، ليتكون حول الأنف بالتحديد دوائر بنية وحمراء، ما بين جلد قديم وجلد جديد، تبدأ عملية التقشير والإحلال، حتى أن ليلى فكرت في الذهاب إلى الإسكندرية لتسترجع من خلالها بعض ذكريات وطنها المطل على نفس البحر، تتخذ القرار وتتراجع عنه بين حين وآخر، وهي هنا بمصر لأول مرة بالصيف، على غير العادة....

من ضمن الزبائن الصيفيين، حضر (طاهر) من الأقصر، وحضر (محسن) من الشرقية، وعاد سعيد العازف، ولا يجمع بينهم إلا السمر الليلي، ومن ضمن مكونات وعناصر هذا السمر، أنا وليلى.

كنا جميعاً، نفهم رسالة الليل وصلته بالقمر وبالقطط التي تتسكع فيه، كنا نحاول تغير رسالة الصباح والسعي اليومي الصباحي إلى رسالة ليلية من السهر والضحك، رسالة غير معلنة.

يشتكي الزبائن الآخرين من أصواتنا فنحاول خفضها، ثم تعاود الارتفاع تلقائياً، مع السخرية ممن ينامون في العاشرة مساءً.

قد يحدث وينضم إلينا زبون أو اثنين من زبائننا، نجدهم يبدءون في التعرف علينا جميعاً.

في تلك المرة، كانوا ثلاثة من العراقيين، يعيشون بالسويد، جاءوا في مهمة مؤتمر أدبي، وتوفيراً للنفقات فضلوا فندقنا على فنادق الدرجة الثالثة، ألح عليّ سؤال تجريبي، ولكني تراجعت عنه في الثواني الأخيرة: (هل أنتم سنة أم شيعة)؟

تراجعت عنه، كنت أخشى أن يبدو وكأنه لا محل له من الإعراب، أو قد يصابوا بنوع من الخجل لو كانوا شيعة في مصر البلد السنية.

أما السؤال الذي سألته وكان سؤالاً سهلاً:

– "عن أي شيء يدور المؤتمر الأدبي"، فقالوا:

– "عن (القصة القصيرة في زمن العولمة)"، ثم قال أكبرهم سناً:

– "نشارك على حسابنا الشخصي".

شاركونا جلساتنا الليلية ولم تخلو الأسئلة عن حالهم وحال أسرهم في المنفى الاختياري، جاءت إجاباتهم مقتضبة جداً، ولا تعبر عن شيء، يخبرك بأن حالهم طيب أو سيء، أهدوني في ليلة السفر مجلة تصدر باللغة العربية عن أحوال العراقيين بالسويد، بدأت في

تصفح المجلة على الفور، بدأت صفحات المجلة كنوع من سلامة النوايا، واعتراف بفضل البلد المستضيف، التي قبلت حق اللجوء إليها، بدأت بقصيدة شعر باللغة السويدية، وترجمة لها بالعربية، ضمت بقية صفحات المجلة أخبارهم وأخبار فاعليات يقومون بها، ضمت الصفحة الأخيرة إعلاناً عن مركز لتعليم اللغة السويدية للعراقيين الجدد، ولم تخلو بالطبع من عناصر تسلية كحل الكلمات المتقاطعة التي جاء معظمها أسئلة عن معلومات تاريخية وعن ممالك العراق القديمة، ومعلومات جغرافية عنها وعن معالمها السياحية، صنعوا العراق على طريقتهم الخاصة، ضمن عناصر المجلة.

****

لم تمر أيام قليلة على رحيل العراقيين حتى انضم إلى جلستنا رجل يعيش بالقرب من السويد، ولكن في تلك المرة سويسري الجنسية، بملامح دول الشمال الأوربي، الشعر الكستنائي، أنف منصوب، دقيق الملامح، وجه مشرب بالحمرة، جسد رياضي لا يعرف البروزات أو الانحناءات المعقدة في الأجساد المصرية أو العربية، يعرف أربع لغات الفرنسية لغته الأصلية، والايطالية والألمانية والعربية التي يتحدثها بطلاقة، كنا مذهولين من فرط تحدثه بها وفهمه لقواعد الصرف والنحو، يحفظ أبيات شعر عربية من مختلف عصور الشعر.

درس اللغة العربية، ثم عمل مترجماً للعربية بالسفارة السويسرية بدمشق، عشق كل ما له علاقة بسوريا والشام، يتحدث معنا العربية بلهجة سورية، تمنى الاستقرار بالشام، حاول الاقتران بامرأة سورية، ولكن انتدابه بالسفارة انتهى، ترفض هي العودة معه إلى سويسرا، فعاد مجرجراً أذيال الخيبة خلفه.

أول ليلة قضاها بالفندق، أجاب على سؤالنا:

– "لم تسكن بفندق درجة ثالثة"؟

– "سمعت عن مصر كثيراً أثناء فترة الإقامة بسوريا، وهي زيارة لمدة أسبوع واحد كما تعلمون، كما أن بمصر طبقة أولى وطبقة ثانية وطبقة ثالثة"، ورغم أن الطبقة الثالثة لديهم تختلف عنا ولكن التصنيفات موجودة في كل مكان ، ومنعاً للإحراج، لم يقل أنه تحت التصنيف، ثم اعترف بنفقاته الكثيرة حتى أنها كانت السبب في عدم تحتمل زوجته تلك النفقات الباهظة، والتي تنفق في أي أشياء ليست ذات قيمة تذكر، تركته وحده يواجه مصيره، وشبح الإفلاس.

عند الساعة الخامسة صباحاً تبدأ دائرة السهر تنفض رويداً رويداً، حتى ينسحب الجميع، أبقى أنا مراجعاً لبعض الجمل والعبارات التي سمعتها، أعاود الضحك على البعض منها.

****

طاهر كان أكثر أهل سهرتنا قدرةً على إثارة الضحك والمرح فينا، لا تفارقه الابتسامة طوال فترة حديثه، تبرز أسنانه من فم منحوت وكأن الإزميل تواً تارك فمه بعد عملية النحت، تشعر أنه سليل عائلة أحمس قاهر الهكسوس، تركزت معظم أحاديثه إلينا عن الآثار والسلاح والمهربين.

كيف أن المهرب الفلاني أخفى قطعة أثار في ملابسه الداخلية، ومهرب آخر أضطر لبلع عملات ترجع للعصر اليوناني الروماني، ومهرب حفر نصف بيته للتنقيب ومات أثناء الردم، البر الغربي مليء بالأسرار كشف عن جزء مما سمع عنه، عرضت عليه بعض السائحات السفر ولكنه رفض، سماره الشمسي أضاء عيونهن به.

تخرج من عينيه كل المعابد والمسلات، وطريق الكباش، مقابر الملوك والملكات، ينصب نفسه ليلاً ملكاً ذا صولجان، استطاع الوصول إلى مسامعنا بكل قوة، نجد روحه مطبوعة

فينا بعد كل جملة، سماره يطل علينا من نافذة الحياة الجنوبية، اللون رافد ثالث للنيل جنوب مصر، يصب من يداه نهر ينبع من الوريد، تختلط معه الدماء، عرفنا قيمة طيبة العاصمة القديمة، رأينا كهنة معبد آمون، حتى شوارع الأقصر اليوم، لم يتركها تفلت منه أو من خيالنا، روحه مسلية تنساب منها حياة الصعيد.

وجود ليلي، وهي الأنثى الوحيدة بالمكان وسط ذكور، لابد وأن ينشىء لديهم الغريزة، حاولوا كالطواويس التباهي أمام الأنثى، تأملت هي طاهر وعباراته الساخرة والساحرة.

تعجب هو في البداية من وجودها بين الرجال حتى الساعات الأولى من الصباح لم يهدأ إلا عندما عرف أن طبيعتها غير المصرية مختلفة، ثم بدأت مرحلة التودد بين الطرفين،وفي إحدى مقاهي وسط البلد، كان اللقاء الأول، عرض عليها الزواج وكان العرض الأول لها منذ سنين عديدة، لجم العرض لسانها، ثم استرسل في الحديث بأنه سينهي فحوصات طبيبة خلال أيام ثم يستعد للسفر، ثم سيرجع الأقصر، وبعد ذلك يعود إليها ليسافرا معاً.

لم تنطق هي بكلمة، وتركت الموضوع مفتوحاً، وفي اليوم التالي غادر طاهر، تاركاً خلفه نفرتيتي، ملكة تحكم قلبه الممزق، هل يحتاج للهرب مثل أخناتون؟!، والبدء في إنشاء عاصمة جديدة.. تل عمارنة جديد، عاصمة لها قواعد خاصة وطقوس خاصة، يهرب عن أعين كهنة آمون، لتصبح العاصمة الجديدة بلا بكاء أو صراخ، ولا يتواجد داخل نطاقها سوى ليلى، وتأملاته الفكرية الشخصية.

اختلف أمر محسن كثيراً عن طاهر، فمحسن لم يكن بتلك الصراحة التي تمتع بها طاهر، غامض غريب، فهم ماهيات ليلى بكل ما فيها، حتى أنها تخيلت أنه سمع عنها من فترة، لا أحد يعلم على وجه الدقة، سبب استمراره كل تلك المدة بالفندق، يعمل كما قال بإحدى الدول العربية، قال إنه بأجازة، لم يفصح عن مهنته الحقيقية، فمرة يقول أنا مقاول، ومرة يقول

أنا سمسار، ربما جمع بين المهنتين، بدأ يلعب على وتر ليلى الذي أدركه منذ الساعات الأولى من المعرفة بحكم الخبرة، لعب على وتر الصداقة والمرافقة حتى يخرج إلينا بصفة يومية، صورة له مع امرأة تارة هندية وتارة لبنانية و تارة روسية، يبرز تلك الصور وكأنها بطاقة شخصية أو بطاقة تعارف، موجهاً إليها في المقام الأول كل تلك الصور، وبذلك يحاول عمل نوع من أنواع الاتفاق الضمني معها.

لقاءات محسن كانت بالمهندسين، تم عرض الصداقة، مدخل ليلى في تلك المرة كان مختلفاً، حيث أنها طلبت مهلة للتفكير، فلم يرحل محسن مثل طاهر بل انتظر....

ينفث هواء دخانه في وجوهنا، ويضحك، تشعر من كثرة الضحك أنه سيتحول وجهه إلى مجموعة من التشققات، يخرج منها ثعابين، هنا تكمن الخطورة، توصيفه الوحيد أنه حاوي، يخبئ بين أكمامه حمام وأرانب وأوراق كوتشينة، يلعب بالنار، ثم يطفئ النار ويأكلها، لا يتبق من ألعابه سوى أن يقطعنا، وهو يقطعنا بلسانه الحاد كالمبرد الحداد، نحاول تفادي طعناته بشتى الطرق، ننجح أحياناً و نفشل في أحيان أخرى، فهو محترف طعنات وقتل.

طلب منها الاستقرار في مصر، لمدة غير معلومة، فكرة الاستقرار بمصر فكرة لم تكن مقبولة بشكل كبير لديها، فقبل إتمام الاتفاق، لن يتم شيئاً بينهما حتى لا تكون قوة مهدرة منها ولا تستفيد من العرض بأكبر طريقة ممكنة.

عودة سعيد العازف إلى الفندق أثارت في نفسي ونفس ليلى سؤالاً: (لماذا عاد)؟

لا يوجد سبب حقيقي لوجوده بالقاهرة، تعلل بزيارة أصدقاء قاهريين، وممارسة بعض أعمال التجارة، لم يخرج السبب، عن كون ليلى صارت أكسجين، يريد كل واحد منهم تنفسه قبل الآخر، ولا يهم اختناق الغير، الأهم امتلاك حياة حتى كانت بنصف روح، حياة لبست كل أنواع الأرواح الممكنة منها، الروح المرحة والشريرة والمغرورة والطيبة ، وأخيراً المنكسرة

المتكسرة على أسوار شاهقة الارتفاع، ولم تستطع بلوغها بعد، ولا تعلم موعد بلوغها ولا هم يعلمون موعد هذا البلوغ، نصف روح تجوب في عالمها الخاص الغير مرئي، تزرعها في مواسم، ولكنها تقطفها في غير موعدها، حتى لو وضعت روحها في صوبات زراعية ومثلت دور الثمرة، ستظل تبحث عن من يقطفها في موعدها الذي لم يحن بعد، حتى مواصفات اليد التي تقطفها، لها مواصفات خاصة، يد ناعمة.. ممتلئة.. سميكة، بحيث لا ينفذ منها الماء، بل تظل تشرب منها حتى تشبع وتمتلئ ملامح الماء صافية نقية، تمتنع تلك المياه عن الصب في البحر، تقف عند حافة النهر ولا تختلط بالملح مهما طال الزمن.

الجنس في حديثها عنه هو جرعة لابد وأن تحصل عليها في الأعضاء التناسلية، حتى التناسل لم يعد الهدف من الجرعة، بل منعه قدر الإمكان مهما فكرت فيه مرا،ت كل مرة تبقى على محك استخدام تلك الأعضاء للأمومة ثم تتراجع تحت إلحاح عبارة لماذا؟

****

دعانا السلكاوي لزيارة منزله القريب من منزل سرحان، فالسلكاوي هو من كان سبب معرفة سرحان بالفندق.

دخلنا منزله، الحديث نسبياً في الشكل سواء من الخارج أو الداخل عن بقية منازل القناطر، جلسنا بغرفة السلكاوي التي احتوت على أدوات عزف وأطقم ملابس خارجية غريبة، وبدل أغرب، مختلطة الألوان بطريقة مؤذية للعين، صفوف كاملة وضع بها لا يقل عن ألف شريط غنائي لمطربين معظمهم مغمورين أشهرهم أحمد عدوية، وعلى يمين الغرفة جدول مواعيد، إلى جواره أوراق مكتوبة بخط يشبه الشفرة،كتب فيها عندما دققت النظر كلمات أغاني، وهي البروفة التي يجريها قبل كل حفلة، يبحث في مجمل ما يبحث عنه عن شاعر

مخصوص يؤلف للسلكاوي، ينقله كما انتقل معظم أبناء جيله إلى السينما والمسرح، وأفراح علية القوم يحتاج إلى أغنية واحدة، أغنية واحدة تصبح علامة وماركة مسجلة باسمه.

– "ماذا تعرف عن المقامات"؟

– "كل حاجة بالبركة، عندي خلفية معقولة عن السيكا والنهوند ومقام العجم".

– "بقية المقامات"؟

– "هو أنا عبد الوهاب لأجل معرفة كل المقامات؟!.. بالطبع بقية المقامات في علم الغيب، هو مقام أو مقامين وشكراً، لأجل لقمة العيش، نحن لا نريد أكثر من ذلك".

– "كلام معقول، تصدق منطق".

– "بعد كل فرح أنام يوم على الأقل، لا تستطيع معرفة مدى التعب، أكل العيش مر.. اسمع".

– "اسمع"؟

– "صبح الصباح.. فاتح يا عليم.. والجيب مفيهش.. ولا مليم".

ليلى قالت بفرح:

– "الله عليك يا سلكاوي".

صوته مليء بشجن وحزن، لا ينم عنهما ضخامة جسده، رغم نظراته البريئة في المجمل العام طيب، عفوي، تلقائي، قلبه مقسوم نصفين، نصف ذكر بالغ ونصف طفل عبثي يلهو، فالغناء عنده ليس فقط للرزق، وإنما يحافظ من خلاله على طفل ما زال ينمو داخله.

لشاربه قصة أخرى، يحتفظ بمقص صغير بجيبه الأيمن، ليهذب فيه من حين لآخر، يتشاور معنا عنه، هل أصاب التهذيب هل الجانب الأيمن متساوٍ مع الجانب الأيسر؟ عندما يقول أحدنا لا أن هناك جانب أطول قليلاً تبدو عليه ملامح قلق، على الفور إلى أقرب مرآة يعاود تهذيبه من جديد، ثم يعاود السؤال:

– "ما حاله الآن؟ هل أصبت في تلك المرة"؟

لديه ثلاثة من الأخوة، جميعهم يعملون معه بنفس المهنة، شكلوا النواة الأولى للفرقة، تخصص كل واحد فيهم لعزف آلة معينة، الأخ الذي يلي مجدي، (صبري) السلكاوي، يعزف الأوكورديون، بينما (نجيب) الأوسط عازفاً للعود، أصغرهم (عماد) يعزف الناي والكولا، هو كما يقول مجدي عنه أكثرهم تأثيراً على الجمهور المستمعين، غالباً ما يبدءون به الأفراح، كافتتاحية يخت شرقي.

الثلاثة ومعهم مجدي الكبير جالوا القرى والمدن المجاورة حتى كبرت الفرقة وصار عدد أفرادها عشرة، لم يعد مجدي المغني الوحيد بالفرقة، صار هناك ثلاثة غيره.

في الآونة الأخيرة، صار مجدي مشرفاً فقط، أحياناً يقدم أعضاء الفرقة، ظلوا على حالهم هذا في التسعينيات، وأوائل الألفية ، حتى ظهر ال (DG)، فتراجع الطلب عليهم وعلى الفرق عموماً، أصبحت الأفراح تستسهل ال (DG) عوضاً عن الصوت الحي و الآلة التي تعزف، حتى ما كان يعوض الغناء الرقص قل، بسبب تحفظ بعض العائلات في إحضار راقصة لإحياء الفرح.

أزمة شديدة عصفت بآل السلكاوي ولا مخرج منه سوى تخفيض عدد أفراد الفرقة، بل وتخفيض أجورهم حتى يستمر الكيان نفسه.

عضويتهم بنقابة المهن الموسيقية لا تشفع لهم، إلا بعد عمر طويل، و معاشات ما بعد الستين، آَل السلكاوي جميعهم متزوجون، يعلمون أولادهم السيكا والنهاوند والتون والنصف تون والربع تون، يلقنوهم ما ورثوه من مواويل، وكلما جد موال، يسرعون في حفظه، وتلقينهم إياه حتى حفظوا عدداً لا بأس به من الأغاني والمواويل.

الأمر لا يسلم من حفظ أغاني المطربين الشعبيين الجدد وغير الشعبين من العاطفي والرومانسي، المصري واللبناني والخليجي والسوداني إذا لازم الأمر.

من حارة لحارة ومن شارع لشارع ومن ناد لنادٍ، وكل أسرة على حسب إمكانياتها، وعلى حسب الإمكانيات يكون أيضاً درجة عطاء الفرقة، حتى أن العدد يتقلص.

آل السلكاوي وكبيرهم مجدي يحاولون الإبقاء على الفرقة أطول فترة ممكنة مهما تغيرت الأذواق وتبدلت الآراء عن جدوى الأصوات الحية في مواجهة الأصوات المسجلة.

يعيش السلكاوي دور المطرب العاطفي، حتى في علاقاته النسائية، مزاجه في اختيار النساء اللاتي يعرفهن لا يتوقف عند جنسية معينة، حتى الصينيات لم يرحمهن، زبونة صينية انتهت فيزتها بمصر، آواها بمنزله، تعرف عليها بالفندق، فهم أنها هاربة، حتى تنضم لصديقاتها بالعاصمة، وتعمل جولات بالشوارع والبيع، اتبع مجدي خطواتها، حتى فكر بالزواج منها رغم عدم حفظه للاسم، أو معرفة لغتها وقليلاً جداً من الإنجليزية، سواء منه أو منها إلا أنهما وجدا، لغة تفاهم مشتركة، ظلا متفاهمين إلى أن جاءت حملة فجائية على شوارع القاهرة تم ترحيلها ومنع دخولها البلاد مرة أخرى.

وجدته مكتئب لرحيلها

– "صينية يا مجدي"؟

– "طيبة جداً".

كل فترة من الفترات يحدث هذا التجاذب بينه وبين من لا يفهم لغتها، حتى دول أمريكا الجنوبية، أحب فتاة سمراء من كولومبيا، واستعد للتحضير في خطوات إتمام السفر معها، تاركاً خلفه العائلة وأسرته والغناء، ولكن نقص الأوراق حال دون ذلك، بعد قضاء ليالي معه، سافرت وعلى وعد بالرجوع، لكنها لم ترجع وانقطعت كل أخبارها منذ سنة تقريباً.

ينقذ نفسه بعد كل تجربة بموال، سواء من التراث أو موال لزميل له بالوسط، ينشد به وبعده ينسى، هو من خلق العلاج الذي وصفه لنفسه، ثم يأتي في إحدى الصباحيات، تراه متفائلاً، تعرف أنه تعافى تماماً ينفتح كرشه ويصير أكثر علواً واستدارة، يأكل الحلويات واللحوم والسكريات، هذا علاج آخر اختاره لنفسه، الأكل لعمليات الهجر المتكرر.

آخر مرة ليست بالبعيدة، فتاة من الكونغو كانت في زيارة علمية لمصر، فهي من الباحثات للدارسات للنيل من المنبع وإلى المصب، كل عناصره من سكان وجغرافيا وتاريخ، وخصوصاً حضارات الشعوب التي عاشت على ضفافه، وبما أن مصر دولة المصب، تختم بها الزيارة لدول حوض النيل، اختارت مجدي ليكون مرافقاً لها فى جولاتها على نيل القاهرة، بما يملك من خبرة تفوقنا جميعاً، هذا بعد أن سألت وعرفت أنه الأقدام وسطنا.

لم تفكر هي سوى في البحث، بينما هو لم يفكر إلا في أقامة علاقة معها، مع إفريقية بحتة، غير مخلطة بهجرات من أي مكان.

مدة تواجدها امتدت لأسبوع، فهل يعقل لها أن تكون في علاقة مع من لا تفهم لغته، وأغلب الحوارات تتم بالإشارة، كدليل يعرف الأماكن فقط، لا تفعل شيئاً سوى التسجيل وتدوين الملاحظات، رفضت كل محاولاته في تخطي العلاقة، من كونه مرافقاً لها وهي باحثة.

جاء في خاطري عبارة: (من تظن نفسك يا أيها السلكاوي؟! أنت لا شيء).

خرجنا من منزل السلكاوي لاستكمال الرحلة وحفيف الأشجار خلق موسيقى طبيعية، دون تصنع أو تكلف، دون عناء سمعناها سيمفونية، قائدها البلبل وعصافير، جميعها حطت على الأشجار، وكروان من بعيد يعزف صولو منفرداً.

موج النيل يدور في دوائر وحلقات صغيرة، نرى السمك في الماء الشفاف يصعد سريعاً ثم يهبط سريعاً، يضطرب من الغرباء، يملأ بصره بالشمس، يود لو يصبح طائراً، ولا يحترق مع الشعاع الصباحي.

الطبيعة في القناطر، جعلتنا نتأمل كل شيء من حولنا، انضم إلى مجلسنا على النيل سرحان، عندئذٍ اكتشفنا موهبة الصيد لديه، وموهبة الصبر، جلس على الشط، أمسك الصنارة الغاب، مدها إلى أقصى بعد ممكن وقال:

– "لا تزعجوا السمك، يجب أن يقبل الطعم في هدوء.. معلومة لكم، البلطي كسمكة، تقلق من أقل حركة بالماء".

يدرك قواعد الصيد، من الواضح أنه عمل صياداً في فترة من فترات حياته، صياد من جملة مهن أخرى امتهنها، نظر إليّ بعد صيد أول سمكة:

– "الصبر وقود الصيد...."، صدرت صافرة فرح من فمه، ثم اختتم جلستنا السلكاوي بغنائه، أخذ الضحك أوقاتنا، بدا عم سرحان مع السلكاوي متضادين، خلق هذا التضاد مشهد لعب طفولي، ثم تصالحا في نهاية الرحلة، قضينا اليوم ومضيت إلى المنزل، وليلى إلى الفندق.

****

دخل سرحان إليّ مودعاً:

– "أستودعك الله، أراك دائماً على خير"؟

– "إلى أين أنت ذاهب"؟

– "سأعود إلى بلدي وأفتح بيتنا القديم، دبرت أموري أنا وأم العيال".

– "وبقية أولادك"؟

– "لم يتبق غير (أنور)، رفض الذهاب إلى البلد مفضلاً البقاء هنا".

– "أنور؟ آآه أعرفه، رأيته مرة أو مرتين على ما أذكر جاء معك إلى هنا".

– "نعم.. سأتركه بدلاً مني هنا، ربما أعود من جديد".

– "ماذا ستعمل هناك هل ستعود للفلاحة"؟

– "ربما! كل شيء جائز، استودعك الله".

– "سلام يا عم سرحان".

إذاً وبعد رحيل سرحان، انضم إلى مجلسنا الشاب أنور سرحان، الذي تميز عن سرحان بعدة صفات، أولاً لا يحب الجلوس مطلقاً على الأرض، يجلس على مقعد بالصالة أو حتى إلى جوارنا، يعرف طريقة عمل النسكافيه والكباتشينو وأنواع القهوة المختلفة، إلى جانب صناعة الشاي التقليدي لم يكن يكتف بالصمت، كما كان حال سرحان، في معظم أوقاته معنا، عندما يسهر لا يعود أنور كل يوم إلى منزله بالقناطر، بل يبات بالفندق، يعود يوم واحد، يوم الإجازة، اختار يوم الثلاثاء موعداً لإجازته الأسبوعية، حيث هو الموعد الذي يذهب فيه مع أصدقائه إلى السينما.

أنور يتشارك معنا الرأي وتنتقد فلان وعلان ويشرح لم قام المسئول الفلاني بهذا الفعل، – من وجهه نظره –.

أنور مثال للعامل المتطور الحديث المتناسب مع العصر، بكل صراحة الفندق يحتاج لأمثال هؤلاء ممن يواكبون التطور والحداثة، يعرفون تلبية حاجات الزبائن الحديثة، عصر سرحان له ناسه الذين سألوا عنه بعد رحيله – حتى وإن صاروا قله قليلة –، أما ميزة الشاب أنور فإنه يعرف طلبات العصر الحالي، عرف معنى الأقمار الصناعية التي تدور في الفضاء، عرف أسماء مطربين ومطربات الألفية الثالثة، بل يستطيع وأن يرشح لك اسم مطرب لابد وأن ينال إعجابك.

كان يعرف كذلك كيف يفرق بين الجرائد الحكومية الرسمية، وبين جرائد المعارضة، فقد أكمل تعليمه حاصلاً على دبلوم صنائع، قسم التبريد والتكيف، يخوض في جلساته معنا حديثاً عن الموضات وقصات الشعر وكريمات الشعر والعطور ومزيلات العرق، يرشح لك موضة بنطال ما نال إعجابه، بدون شك هو الشاب المناسب في الوقت والعصر المناسبين، عصر بدأ يرى فيه الشباب ويفهم، عصر ترحل فيه سيطرة العواجيز حتى تحل محله سيطرة شباب ناضج واعٍ، يتعامل بحرفية مع شبكة الانترنت.

صحيح هو يفتقد لبعض مزايا سرحان التقليدية القديمة، منها على سبيل المثال لا الحصر أنه لا يجيد ركوب الحمير، أو رعى قطيع من الأغنام أو المواشي، من المنزل وإلى الغيط والعكس، يفتقد لآذان سرحان الموسيقية الفطرية، لا يمتلك حسه الناشف الذي يشبه العصا الغليظة، لا يعرف كيف يتعامل مع الفأس، وبالتالي لا تمثل الأرض إليه إلا كونها أرضاً يقف عليها ولا يفهم ما في باطنها من خيرات، وما تخرجه بمجرد ضربات الفأس والعناية، حتى ميزات سرحان في محبة لون عن لون، وذوقه الحسي الذي تكون مع الأيام، لم يتمتع بها؛

فأنور كل الألوان لديه على درجة واحدة، دون تميز أو تفضيل للون عن آخر، شاب جنزي الصفات،كصفات البنطال الذي يرتديه، سميك ولا يبلى بسهولة، يرفض القماش، يرفض براح الأرجل، يحب بنطاله ضيقاً، مقسماً جسده، مظهراً عضلاته.

بلا شك، هو الشاب المناسب في الوقت المناسب.....

****

عاد سعيد، ورحل محسن بعد أن مل الانتظار، فمن هي ليلى؟.. هو يستطيع أن يعرف العشرات غيرها، كونها متاحة أمامه أعتقد أنه أراح نفسه من عناء البحث، ولكن هيهات، ماذا يفيد الانتظار؟ مع السلامة يا ليلى، المرات القادمة أكثر.

عودة سعيد جعل علاقتهما تأخذ منحنى جديد من التعارف العميق، سعيد بحكاياته عن الفشل وهى بحكاياتها عن عادل وقهر عادل، حكت له عن عادل فقط.

خرجت أنا من المعادلة الجديدة تماماً، بعد وأن كنت الطرف الثالث، بدأت اللقاءات الخارجية تزداد بينهما، بدأ الانسجام فوصل الأمر إلى أن سعيد لم يعد فقط في دوائر اهتماماتها، ولكنه دخل في إطار جديد، هل يعقل أن يحقق سعيد ما لم يتوقعه أي شخص عرفها، بل تكتفي به بديلاً عن عادل وعن آخرين قبله.

مرت الأيام والواضع يزداد قرباً.....

سعيد تقمص من البداية دور (فرويد) في تحليل الشخصيات، وعن مبدأ اللذة استعرض خبراته الشخصية، حيث فهمه في علم النفس مثل الموسيقى، تقمص أدواراً أخرى يليق البعض منها عليه والبعض الأخر لا يليق.

تقمص مرة دور (جمال حمدان) في وصف وتحليل الشخصية المصرية، ولكن آراءه دائماً ما تكون صادمة بالنسبة للعاديين، أما بالنسبة لليلى فقد وضعت هي الأخرى مقارنة أمامنا عن شخصيات ونماذج سواء في مصر أو ببلدها، ولم نخرج بنتيجة معينة أو حتى رأى موحد، النتيجة التي – إلى حد ما – وحدت أرائنا هي أن الشخصيات أصبحت مستهلكة جداً، ولا تشبع مهما امتلأت، تشابهت الشخصيات في كل البلدان مع اختلاف اللغات وتباين العادات والتقاليد.

يعلق روحه على شماعات تنتظر الاستعمال، يخبئ أكثر من روح في دولاب منزله، يستعمل بعضاً منهم عند الحاجة ويذوب مع الأصدقاء وكأن شيئاً لم يكن، يضحك ثم يستأنف الحوار بنبرة ساخرة عن يوم شرب فيه عشر زجاجات بيرة:

– "شربت كل ما في الثلاجة احتفالاً بعيد ميلادي الثلاثين، مصنع البيرة تحول مقره إلى معدتي.. ها ها ها ها....." ويشير إلى معدته قائلاً:

– "دفنت نفايات كثيرة بها"، ابتسمت ليلى ابتسامة لمعت فيها عينيها:

– "لا.. لا.. أنا شربت ست زجاجات بحد أقصى، أنت أكثر بكل صراحة، لم أسمع من قبل عن كل هذا العدد.. ها ها ها ها".

– "هل يصلح أن يسجل في موسوعة جينيس للأرقام القياسية،ويا ترى هل هناك من يستطيع أن يشرب أكثر مني؟ أو أن هناك شخص شرب أكثر مني بالفعل، تصوروا أني بعد هذا اليوم التاريخي المشهود نمت أسبوعاً، ما بين الإفاقة وعدمها، أستيقظ لساعتين أو ثلاثة في اليوم، أشرب.. أأكل.. أدخل الحمام وأنام، حالة من حالات الموت السريري، تعمل جميع وظائف الجسد مع توقف أنشطة أخرى، ما عدا العقل والقلب، حتى الجوع لم يكن جوعاً حقيقياً، كنت آكل خوفاً من الموت جوعاً".

ظلت ليلى مأخوذة في عالمه الذي ينسجه أمامنا، أظن أنها تذكرت أياماً كانت هي فيها مثله أو تشبهه، فمع كل عبارة ينتهي منها يدخل في قصة جديدة عن سكرات الموت التي تعرض لها أكثر من مرة، يحفظ للخيام رباعياته عن الخمر:

سمعت صوتاً هاتفاً في السحر نادى الحان غفاة البشر

هلموا املئوا كأس الطلى قبل أن تفعم كأس العمر كف القدر

ثم استأنف:

"وما انتهت كأس شربت ومرشف ضغطت بما لابد منه قبولا

الخيام.. عمر الخيام، كتب الشعر عني منذ ألف سنة، وقال عن نفسه وعن كثيرين مما أتوا بعده"، ومضى يسرد وكأنه في الصحراء وإلى جواره نديمه يقص عليه ما جاد به الليل من خواطر وأفكار، وما تفضل به القمر من شعاع وبصيص من نور، في ظلمة الصحراء الليلية الموحشة يرى النار التي أشعلها تفك قليلاً من الوحدة فيغذيها بالحطب، ويغذي ناره محاولاً إطفاءها بالبيرة، وحفظ رباعيات الخيام.

تلك النوعية من البشر تذهب من آن لآخر، تتفقد أحوال الكائنات الليلة من أمثاله، يحاورها في أمور خاصة بها، فالعوامل المشتركة كثيرة تتشابه مع مرحلة اللاوعي، يتعامل معهم بمبدأ جلب المنافع، في محاولة تخليص الجسد من أعباء الروح، رحلات شاقة وعسيرة ومزمنة الألم، وبعد الجدل والعناد يصل إلى أرض جديدة، أسماها (النفس العميقة)، يعود منها بعد أيام.

حالة مستغرقة في عالم كلاسيكي من أجواء عصر الباروك الموسيقي، من عصر بتهوفن وموتسارت، يعيش في أجواء القرن السادس عشر، تأخذه الغيرة على التراث العربي، فيعزف

كامل الخلعي، والشيخ سلامة حجازي ،والشيخ زكريا أحمد، ويختتم بفنان الشعب سيد درويش.

يفصل ذكرياته بمشوار السيجارة، ثم البانجو، ليتمدن قليلاً و يدخل في مرحلة الحشيش، والمرحلة الأحداث متمثلة في الأدوية المخدرة، لكل مرحلة من المراحل السابقة أصدقاء، إلا أن مرحلة الأدوية لا تحتاج إلى أصدقاء، بل على العكس تستمتع أكثر وأنت تتعاطاها منفرداً في عزلة عن العالم، يستيقظ ثلاثة أيام ثم ينام ثلاثة أيام، يتبقى يوم واحد أجازة، لا يشتري فيه، ينوع المسميات، حتى لا يفقد مفعوله أو فاعليته بعد مدة، يعترف أنه حالياً في مرحلة البيرة، استراحة محارب من الأدوية، ويعود لها أكثر طلباً.

عندما يمسك الكمان ويعزف، قد يصل بيديه إلى مرحلة الدماء من فرط الموسيقى التي تحيى في ذاته، يولد مع كل مقطوعة، يولد من رحم النغم.

خرج مع ليلى ثم عادوا في وقت متأخر وقالوا بلسان واحد:

– "لقد قررنا الزواج". فسألت:

– "متى"؟!

– "بعد أسبوع أو ربما أقل، نجهز عش الزوجية".

سعيد ليس خبير بصمات، هو مجرد عازف موهوب، ليت جسدها من المعدن أو الخشب أو أي مادة تستطيع أن تأخذ منها البصمات، ولكن لو كان كذلك، لا أظن أن البصمة في حالتها ستفيد، سوف تختلط البصمات، وتضيع ملامحها، مع كثرة التداول واللمس.

الجلد كمادة لديه فقط ذاكرة، تسترجع عند الحاجة، لمسات اللحظات الحميمية.

اجتمعنا في الليلة التالية بصالة الفندق الذي كان مزدحماً فخرجا سوياً؛ لأنها أصبحت تلازمه في خروجه ودخوله، خرجا معاً وتأخرا، وعند الساعة الرابعة صباحاً دخل سعيد يترنح، وهي تسانده حتى أدخلته الغرفة:

– "ليلى"؟

– "هل حدث بينكما الشيء الطبيعي"؟

– "ما شأنك أنت لتسأل؟ أنت موظف استقبال".

بين الشك واليقين لذت بالصمت، وفي حدود الساعة السابعة صباحاً، خرج سعيد منهك القوى، ومعه حقيبة سفر:

– "أراك على خير، سأعود غداً أو بعد غد"، ثم ودعته

قبل موعد انتهاء الوردية، خرجت ليلى تترنح، ظننت أنه ترنح من آثار الليلة الماضية، ولكنها لم تكن كذلك، فتحت فمها بصعوبة بالغة:

– "جدران الغرفة تضيق أشعر أنها قبر.. ضيق بالتنفس، أجدني أموت، الفراغ ينقص من حولي".

– "ما بك؟.. هل هي علامات الاحتضار أم ماذا"؟

– "ربما احتضر.. انظر".

– "أنظر...."؟

– "ألا ترى الشجرة هناك"؟

– "أية شجرة؟ لا أرى غير حوائط فقط".

– "ألا تلمس الشمس أهداب عينيك مثلي؟ أرجوك دعني وشأني الآن".

– "ولكن....."!!

– "دعني".

تركتها تهزي، تردد كلاماً غير مفهوم، حتى حل موعد تبديل الوردية، دخلت غرفتها وهى مازالت تترنح، وعندما رجعت بالليل أسال عنها وأستفسر عن سبب تعبها المفاجئ، فاجئني زميلي بقوله:

– "لقد سافرت".

– "سافرت"؟!

دخلت غرفتها التي كانت خالية، لا أثر لها إلا رائحة عطرها الفرنسي الذي طالما كانت تفخر به أمامنا، الرائحة نفاذة، ترى هل صبت الزجاجة بالكامل؟

– "لماذا رحلت"؟!

هل تكون قد ذهبت مع سعيد؟ أو رحلت إلى طاهر بالأقصر؟ أو فضلت مرافقة محسن؟ أو عادت لمسعد؟ أو رحلت لبلدها حيث يستقر عادل؟ لم يفارقني الذهول، ثم جاء خاطر آخر، ربما تركت أفريقيا كلها، وذهبت إلى صديقتها منال بفرنسا....؟

تركت الوردية وخرجت دون أن أستجيب لنداءات زميلي، إلى وسط البلد أركض حتى وصلت لدار القضاء العالي.

تأملت فكرة العدل والمبادئ التي عاشت عليها وعلى أحكامها التي أحكمت بها الدنيا من حولها، حكمت بفلسفة (نموت نموت وتحيى المدرسة)، المدرسة والمعلم، حتى أثاث المدرسة، نتاج جهد كبير في ترسيخ مبادئها عبر الأجيال، تحسهم على التعلم وعلى توظيف ملكاتهم في ذلك، كلنا معلمين ولا يوجد طلاب بالمدرسة، في الواقع الطلاب كائنات وهمية، كل مدرس له تجاربه وخبراته، وله أسلوبه الخاص الذي يتميز به، أنا نفسي لم أكن طالباً، أنا مدرس، وكل مدرس يحتاج مدرسة، فلم لا أكون ناظراً لها، وقد أكون صاحب المدرسة، لمَ لا؟ فكل شيء جائز.....!!

تمت

11 / 11 / 2015م